جامعة الأزهر
الدراسات الإسلامية
والعربية
للبنات بالزقازيق
التفسير وعلوم القرآن

(فقه الاعتبار بالقصص القرآني)

دكتورة
نبيلة حامد محمد على

الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن الكريم

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بالزقازيق

فقه الاعتبار بالقصص القرآني ـــــــ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ذي الفضل والإحسان القائل في كتابه : {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ ...} يوسف٣ ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين .

أما بعد :

فقصص القرآن الكريم هو فصول اختارها رب العالمين من حياة الناس ، لتكون مرآة صادقة لحركة التاريخ الإنساني . ذلك التاريخ الذي غفل الناس عن تدوينه حيناً ، وعجزوا عن ذلك في أكثر الأحيان ، وما سَلِمَ من العجز والغفلة لم يسلم من الزيادة والنقصان ، وتدخل الأهواء في كتابته وتدوينه ، فكان من النعم العظيمة التي أفاء الله بها على البشر بنزول هذا القرآن الحكيم ؛ أن قص عليهم من نبأ السابقين من الآباء والأجداد ، وحدثهم حديث الصدق عن فترات موغلة في القدم .

فتراهم على تقادم الزمان يُبصرون في هذا القصص خبر الأسرة الأولى لبنى البشر ، وكيف خُلق رب تلك الأسرة ، وهو آدم ـ عليه السلام ـ وكيف خلق الله له زوجاً من نفسه ليأنس بها ، وتأنس به ، ويؤسسان معاً نواة المجتمع الإنساني، ويُبصرون في هذا القصص عداوة إبليس الدائمة لآدم وذريته .

ويرون فيه نبأ الراشدين من آبائهم ، وكيف رشدوا ، وخبر المغضوب عليهم ، وحقيقة ما اقترفوه من آثام حتى لحقهم غضب الله ، وحديث الضالين منهم ، وكيف تنكبوا الصراط المستقيم .

وقص علينا القرآن العظيم قصص حضارات قامت ثم بادت ، وبيَّن لنا أسباب نهوضها ، وعوامل اندثارها ، والسنن والقوانين التي تحكم ذلك .

هذا القصص القرآني ـ على كثرة ما كتب عنه ـ لا يزال بكراً يُنادى المؤمنين لاستخراج كنوزه ، واستنباط دُرره ، ولا تزال الأمة المسلمة في أمس الحاجة إلى منهج جاد لدراسة هذا القصص ، والإفادة منه في تربية الناشئة على قيم الحق والفضيلة ، وفى وضع خطط العمل للحاضر والمستقبل ، وتلافى الأخطاء في التعامل مع السنن الإلهية لحركة التاريخ .

يقول حجة الإسلام الغزالي – رحمه الله ـ :

" هذه القصص وردت في القرآن ، لتُعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل ، فما في القرآن شيء إلا وهو هدى ونور ، وتَعَرُّفٌ من الله ـ تعالى ـ إلى خلقه فتارةً يتعرف إليهم بالتقديس فيقول ﷻ:

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ الإخلاص ١ـ٤

وتارة يتعَّرف إليهم بصفات جلاله فيقول ﷻ:

﴿ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ **الحشر ٢٣ .**

وتارة يتعرف إليهم في أفعاله المخوفة ، والمرجوة فيتلو عليهم سنته في أعدائه ، وفي أنبيائه فيقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ﴾ **الفجر ٦،٧.**

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ **الفيل ١.**

ولا يعدو القرآن هذه الأقسام الثلاثة وهى:

١- الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتقديسه .
٢- أو معرفة صفاته وأسمائه.
٣- أو معرفة أفعاله وسنته مع عباده." [١]

ويقول –رحمه الله – أيضاً : " أكثر أسرار القرآن مُعبأة في طي القصص والأخبار ، فكن حريصاً على استنباطها ؛ لِيُكشف لك فيه من العجائب ، ما تستحقر معه العلوم المزخرفة الخارجة عنه ."[٢]

---

(١) إحياء علوم الدين ٣٤٣/٤.
(٢) إحياء علوم الدين ٣٤٣/٤.

ويوضح الشيخ ولى الله الدهلوي [١]- رحمه الله- طبيعة القصص القرآني ، وأسلوبه ، وكونه جاء متساوقاً مع هدف القرآن ، وهو الهداية والتذكير .

فيقول : " ليُعلم أن المقصود من نزول القرآن ، تهذيب طوائف الناس من العرب والعجم ، والحضر والبدو ، فاقتضت الحكمة الإلهية أن لا يخاطب ، في التذكير بآلاء الله ، بأكثر مما يعلمه أكثر أفراد بني آدم ، ولم يُبالغ في البحث ، والتفتيش مبالغةً زائدةً ، ...وذكر لهم إجمالاً مثل قصص قوم نوح ، وعاد ، وثمود . وكان العرب تتلقاها أباً عن جد . ومثل قصص إبراهيم ، وأنبياء بني إسرائيل - عليهم السلام - فإنها كانت مألوفة لأسماعهم ؛ لمخالطة اليهود ، والعرب في قرون كثيرة لا القصص الشاذة غير المألوفة ...، وانتزع من القصص المشهورة جملاً تنفع في تذكيرهم ، ولم يسرد القصص بتمامها مع جميع خصوصياتها .

والحكمة في ذلك أن العوام إذا سمعوا القصص النادرة غاية الندرة ، أواستقصى بين أيدهم ذكر الخصوصيات يميلون إلى القصص نفسها ، ويفوتهم التذكير الذي هو الغرض الأصلي فيها ؛ إن الناس لما حفظوا قواعد

---

(١) شاه ولي الله (١١١٠ - ١١٧٦ ه = ١٦٩٩ - ١٧٦٢ م) أحمد بن عبد الرحيم الفاروقي الدهلوي الهندي، أبو عبد العزيز، الملقب شاه ولي الله: فقيه حنفي من المحدثين.من أهل دهلي بالهند.زار الحجاز سنة ١١٤٣ - ١١٤٥ ه.قال صاحب فهرس الفهارس: (أحيا الله به وبأولاده وأولاد بنته وتلاميذهم الحديث والسنة بالهند بعد مواتهما، وعلى كتبه وأسانيده المدار في تلك الديار) وسماه صاحب اليانع الجنى (ولى الله بن عبد الرحيم) وقيل في وفاته: سنة ١١٧٩ هـ.من كتبه (الفوز الكبير في أصول التفسير - ط) ألفه بالفارسية، وترجم بعد وفاته إلى العربية والأردية ونشر بهما، و (فتح الخبير بما لابد من حفظه في علم التفسير - ط). انظر الأعلام للزر كلي (ج ١ / ص ١٤٩).

التجويد شُغلوا عن الخشوع في التلاوة ، ولما ساق المفسرون الوجوه البعيدة في التفسير، صار علم التفسير نادراً كالمعدوم .

...فليس المقصود من هذه القصص معرفتها بأنفسها ، بل المقصود انتقال ذهن السامع إلى وخامة الشرك والمعاصي ، وعقوبة الله عليها ، واطمئنان المخلصين بنصرة الله تعالى ، وظهور عنايته ﷻ بهم " .(١)

موضوع البحث وأهميته :

وهذا البحث الذي شاء الله القدير أن يجرى به القلم وعنوانه (فقه الاعتبار بالقصص القرآني) ، إنما هو محاولة للفت الأنظار إلى المقصد الأسمى من ورود القصص في القرآن الكريم ، وهو اعتبار الأحياء بما جرى للأموات ، وأخذ العبرة للحاضر ، والمستقبل من الماضي ، وعدم تكرار الأخطاء التي وقع فيها من سبق والاقتداء بأهل الخير الذين أثنى الله تعالى عليهم ، وقبس من قوله تعالى:{ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ }الأعراف١٧٦.

وقولـــــــــــه – عز وجل - ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يوسف١١١.

(١) الفوز الكبير نقلاً عن تفسير القاسمي ١/ ٢٦٧، ٢٦٨

فالمقصد من عنوان البحث أن يدل على هدفه الأساسي ؛ وهو فهم وتعلم طرق ، ومجالات الانتفاع بالقصص القرآني في كل نواحي الحياة العلمية ، والعملية لا سيما ما كان متعلقاً بالسنن التاريخية وتسليط الأضواء على الهدي النبوي في هذه القضية الهامة .

وحتى نقف على أهمية هذه البحث حسبنا أن نتأمل موقف هذين الرجلين ، ومدي قدرتهما على الاعتبار بالتاريخ ، ورؤية سنن الله تعالى فيه :

الأول : ورقة بن نوفل ﷺ .

الثاني : هرقل قيصر الروم .

أما ورقة ابن نوفل ﷺ فقد أدرك سنة الله في أصحاب الرسالات مع أقوامهم ، فقال للرسول ﷺ كلمة عميقة الدلالة جاء فيها : " ...يا ليتني أَكُونُ حَيًّا حين يُخْرِجُكَ قوْمُكَ . قال رسول اللهِّ ﷺ : أو مخرجي هُمْ ؟ قال : نعم لم يَأْتِ رَجُلٌ بِمِثْلِ ما جِئْتَ بِهِ قطُّ إلاَّ عُودي وإن يُدركني يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً " [1].

لقد استشرف ورقة ﷺ المستقبل ، وأخبر النبي ﷺ بما سيحدث بعد ثلاث عشرة سنة ، وصدق فيما قال ، وتمت هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة ، ولم يكن ورقة يعلم الغيب ، ولكنه كان يعلم طرفاً من تاريخ الأنبياء ، وقصصهم ، ويدرك سنة الله في حياتهم وكفاحهم ، فقال قولته التي صدقها القدر .

---

[1] مسند أحمد بن حنبل ج ٦ ص ٢٢٣.

وأما هرقل : فإن في حديثه الذي رواه البخاري ما يملأ النفس دهشة من علم هذا الرجل ، فهو وإن لم يؤمن !! إلا أن في كلامه ما يدل على إدراك عجيب لسنن الله في التاريخ ، والأنفس ، والمجتمعات إذ اشتمل كلامه الوارد في الحديث على تسع سنن إلهية نذكرها كما وردت في الرواية قال لأبي سفيان :

١- " سَأَلْتُكَ عن نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ في نَسَبِ قَوْمِهَا " .

٢- " وَسَأَلْتُكَ هل قال أَحَدٌ مِنْكُمْ هذا الْقَوْلَ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ فقلت: لو كان أَحَدٌ قال هذا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ ".

٣- "وَسَأَلْتُكَ هل كان من آبَائِهِ من مَلِكٍ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ قلت : فَلَوْ كان من آبَائِهِ من مَلِكٍ قلت رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أبيه".

٤- "وَسَأَلْتُكَ هل كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قبل أَنْ يَقُولَ ما قال فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ ، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لم يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ على الناس وَيَكْذِبَ على اللَّهِ ".

٥- " وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ الناس اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ".

٦- " وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حتى يَتِمَّ ".

٧- " وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فيه فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ ، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حين تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ ".

٨- " وَسَأَلْتُكَ هل يَغْدِرُ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لاَ تَغْدِرُ "

٩- " وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ ، ولا تُشْرِكُوا بِهِ شيئا ، وَيَنْهَاكُمْ عن عِبَادَةِ الأَوْثَانِ وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلاَةِ ، وَالصِّدْقِ ، وَالْعَفَافِ. فَإِنْ كان ما تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ وقد كنت أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ لم أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إليه لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ وَلَوْ كنت عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عن قَدَمِهِ ..." .(١)

فتلك تسع سنن إلهية أدركها هذا الذكي الداهية من علمه بالتاريخ وفهمه له ، وقد استشرف هو أيضاً المستقبل وصدَّق القدر ما قال وتحقق قوله عن الرسول ﷺ : " ...سَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ !!" . وفُتحت الشام ، ومصر ، وسائر البلاد التي كان يحتلها الرومان ، وصار أهلها هم مادة الإسلام ، وعدته وعتاده.

فهل نفعل ما فعله ورقة ﷺ وهرقل مع التاريخ والمستقبل ، وهما لم يقرءا القرآن فكيف بهما لو فعلا ؟ !!

إن قصص القرآن الكريم تزدحم فيه عبر التاريخ ، وتتلألأ في ثناياه سنن الله تعالى فهل نعيها ونرسم على أساسها خطط الحاضر والمستقبل ؟! .

خطة البحث :

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يُقسم إلى مقدمة ، وتمهيد ، وسبعة مباحث ، وخاتمة .

المبحث الأول : الحكمة من ورود القصص في القرآن الكريم .

(١) صحيح البخاري ج ١ ص ٨ .

المبحث الثاني : القصص القرآني وعلاقته بعلم التاريخ .

المبحث الثالث : قصص القرآن الكريم ينظم علاقتنا بالتاريخ .

المبحث الرابع : نماذج من آثار العلاقة المعوجة بالتاريخ ، وعلاج القرآن لها .

المبحث الخامس : منهج الرسول ﷺ في التربية بالقصص القرآني ..

المبحث السادس : أسباب خمود ملكة الاعتبار بالقصص القرآني .

المبحث السابع : الخطة المقترحة لتفعيل اعتبار الأمة بالقصص القرآني .

ثم الخاتمة ، وفيها أهم النتائج ، والتوصيات ، ثم ثبت المراجع ، ثم الفهرست .

وقد اجتهدت ما وسعني في جمع النظير إلى نظيره ، واستنطاق النصوص ، وتوثيقها ، وتوضيح الفكرة وشرحها ، واستخلاص النتائج والفوائد ، فإن أكن وفقت فهذا فضل الله وأحمده عليه ، وإن كنت قد قصرت ، أو أخطأت فهو من ضعفي ، وقصوري وأستغفر الله وأتوب إليه .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل

د/ نبيلة حامد محمد على

تمهيد

التعريف بالمصطلحات المضمنة في عنوان البحث

أولاً :تعريف الفقه :

"الفاء والقاف والهاء أصل واحد صحيح يدل على إدراك الشيء والعلم به تقول: فقهت الحديث أفقهه ، وكل علم بشيء فهو فقه... ثم اختص بذلك علم الشريعة فقيل: لكل عالم بالحلال والحرام فقيه ، وأفقهتك الشيء إذا بينته لك" .[1]

و"الفقه : العلم بالشيء والفهم له ، وغلب على علم الدين لسيادته ، وشرفه وفضله على سائر أنواع العلم " [2].

ثانياً : تعريف الاعتبار :

" العبرة الاتعاظ يقال : منه اعتبر ، وهو الاستدلال بشيء على شيء يُشبهه ، واشتقاقها من العبور ، وهو مجاوزة الشيء إلى الشيء ، ومنه : عبر النهر ، وهو شطه ، والمعبر : السفينة ، والعِبَارة يُعْبَر بها إلى المخاطب بالمعاني ، وعبرتَ الرؤيا مخففاً ومثقلاً : نقلت ما عندك من علمها إلى الرائي أو غيره ممن يجهل : وكان الاعتبار انتقالاً عن منزلة الجهل إلى منزلة العلم ، ومنه ، العَبرة ، وهي الدمع ، لأنها تجاوز العين ."[3]

---

(1) معجم مقاييس اللغة ج٤ ص٤٤٢.
(2) لسان العرب ج١٣ ص٥٢٢ .
(3) تفسير البحر المحيط ٣ / ص ١٥٨.

"والعِبرةُ الفكرة ، والبصيرة المُخلصة من الجهل والحيرة ." [1]

وأشد ما تصاب به أمة من الأمم أن تفسد بصيرتها فلا ترى الحق حقاً ، والباطل باطلاً ساعتها يكونون كقوم نوح الذين قال الله تعالى فيهم - وهو يذكر سبب هلاكهم - :

{... وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ } الأعراف ٦٤.

ثالثاً : تعريف القصص :

١- في اللغة :

"القص تتبع الأثر يقال قصصت أثره ، والقصص الأثر ...، و القصص الأخبار المتتبعة " [2]

" والقاصُّ مَنْ يَأتِي بالقِصَّة على وَجْهِهَا ،كأنَّهُ يَتَتَبَّعُ مَعَانِيَهَا وألْفَاظَها " [3].

وقد وردت مادة قص في القرآن الكريم مراداً بها تتبع الأثر ، في موضعين من قصة موسى عليه السلام .

الأول : قول موسى عليه السلام لفتاه: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾. الكهف ٦٤

---

(١) فتح القدير ٣/ ٦١.
(٢) المفردات في غريب القرآن ج١/ص٤٠٤ .
(٣) تاج العروس ج١٨/ص٩٩ .

الثاني : قول أم موسى ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ **.القصص**[١١]

" والقِصص بكسر القاف جمعٌ واحده قصة ، والقصة في لغة العرب الأخبار المروية ، والأنباء المحكية ...والعرب تجعل حكاية كل خبر قصة ، إلا أن المتأمل فيما تعارف عليه أهل العلم والأدب أن القصة لون خاص من الأخبار ذو طبيعة خاصة ، وعلى ذلك فكل قصة خبر ، وليس كل خبر قصة ، فما حدثنا الله به عن خلق السموات والأرض ، وخلق الملائكة والجن أخبار ، وليست بقصص ، أما أخبار الرسل مع أقوامهم ، والصراع بين الأخيار ، والفجار فهو قصص كما أنه أخبار . "[١]

٢ـ في الاصطلاح :

تُعرف القصة عموماً بأنها : " فنُ حكاية الحوادث والأعمال بأسلوب لغوي ينتهي إلى غرض مقصود . وهى فن أدبي قديم صاحبَ الأمم من عهد البداوة ، وإلى عهد ذروة الحضارة ، ومكانتها ممتازة بين الفنون الأدبية لمرونته ، واتساعه للأغراض المختلفة ، ولجمال أسلوبه ، وخفته على النفوس ، وقد بلغ به القرآن ذروة السمو والكمال ." [٢]

وأما القصة القرآنية فيعرفها الشيخ الطاهر بن عاشور بأنها : " الخبر عن حادثة غائبة عن المخبر بها ، فليس ما في القرآن من ذكر

---

(١) صحيح القصص النبوي . د. عمر سليمان الأشقر ص ١٢.

(٢) معجم علوم اللغة العربية . د . محمد سليمان الأشقر : ص ٣٢٠ .نقلاً عن السابق نفس الموضع بتصرف.

الأحوال الحاضرة في زمن نزوله قصصاً مثل ذكر وقائع المسلمين مع عدوهم ".[1]

قلت : وقد اصطلح علماء الإسلام على تسمية ما ذكره القرآن من الأحوال الحاضرة زمن نزوله بـ" السيرة "ويدخل فيه جميع ما صح من أسباب نزول القرآن الكريم .

(1) التحرير والتنوير ١ / ٣٥ .

المبحث الأول

الحكمة من ورود القصص في القرآن الكريم

الحكمة الأولى : قصص القرآن شاهد حق على صدق الرسول ﷺ .

الحكمة الثانية : يبين حقيقة الدين الإلهي الذي جاء به الرسل الكرام وأنه دين واحد.

الحكمة الثالثة : من وسائل الهداية والتربية والإصلاح .

الحكمة الرابعة : التعريف بطبائع الناس ووسائل علاجها وسنن الله في عقابها أو معافاتها.

الحكمة الخامسة :تثبيت فؤاد النبي ﷺ وصحابته الكرام وأهل الحق من بعدهم .

الحكمة من ورود القصص في القرآن الكريم

تتعدد الحكم والغايات الشريفة وراء تضمن الذكر الحكيم لقصص اختارها الله ﷻ لتكون مصابيح تُضيء ذلك الماضي البشري العامر بقرون تطاول عليها العمر ، الحافل بالأحداث التي لا يعلم الإنسان عنها إلا النادر ، ويمكننا أن نستخلص بعض تلك الحكم والغايات من خلال تدبرنا للقرآن العزيز والنظر فيما كتبه أهل الذكر من علمائنا ﷺ وما يفتح الله تعالى به .

الحكمة الأولى : قصص القرآن شاهد حق على صدق الرسول ﷺ :

إذ يشتمل هذا القصص على " أخبار القرون السالفة ، والأمم الخالية مما كان لا يَعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب ، وقد علموا أنه ﷺ أمي لا يقرأ ولا يكتب ، حتى كان علماء أهل الكتاب يسألونه عن كثير مما يختلفون فيه فيورده لهم على وجهه ، ويأتي به على نصه فيعترف العالم منهم بذلك له بصدقه قال الله تعالى:{إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } النمل٧٦ ، ويقطع الموافق والمخالف أنه لم ينل ذلك بتعليم ، وإنما هو بإعلام العزيز العليم ، حتى لم يقدر أحد من أحبار اليهود ، مع شدة عداوتهم له على تكذيبه فيما سألوه عنه ، من قصة يوسف ، وإخوته ، وذي القرنين ، وموسى والخضر، ولقمان وابنه ، وأصحاب الكهف ، مع أن أقرب قصة كانت بينه ، وبين عيسى ﷺ قصة أصحاب الكهف ، وكان أهل الكتاب فيها كما قال الله تعالى :{ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا } الكهف٢٢.

فاعترفوا له بالصدق وأقروا له بالحق ، فإذا كان هذا شأنهم في أقرب القصص إلى عصرهم ، فما ظنك بقصة آدم وإبليس ، وابني آدم ، وإدريس ، ونوح ، وأصحاب السفينة ، وعاد ، وثمود ، وإبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، وغيرهم ممن لا يعلمهم إلا الله ، وكانوا إذا نازعوه في شيء مما أخبرهم به - كحكم الرجم وما حرم إسرائيل على نفسه - احتج عليهم بأنهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل وقال: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ **آل عمران ٩٣، ٩٤.**

{فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ } **البقرة٨٩" .**[1]

قلت:وقد أشار القرآن العزيز إلى هذه الحكمة في آيات كريمات هي قوله تعالى:

{ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ }. **آل عمران٤٤**

وقوله -تباركت أسماءه-:{ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ }. **يوسف١٠٢**

وقوله - عز من قائل حكيم- : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ

---

(1) **سيرة النبي المختار ج١/١٧٠،١٦٩.**

ثَاوِيًا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ . القصص ٤٤ـ ٤٦

الحكمة الثانية : بيان حقيقة الدين الإلهي الذي جاء به الرسل الكرام عليهم السلام وأنه دين واحد :

يقول الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ : " القرآن كتاب الدعوة وتاريخها، وفى تضاعيف السرد التاريخي لأخبار الأولين يزداد عرض الدعوة وضوحاً ، ويستبين منهجها الذي تحدو البشر إليه ، والذي لا يختلف ، وإن اختلفت العصور وكرت الدهور ... الأنبياء من آدم ونوح ، ثم من جاء بعدهم ... إلى أن تُوجوا بخاتمهم محمد ابن عبد الله ... هؤلاء جميعاً شرحوا أصول العقيدة ، والخُلق ، والمعاملة شرحاً فياضاً بالصدق ، عامراً بالإخلاص .

وإنك لتسمع إليهم واحداً بعد الآخر – فيما سجل القرآن – من وصاياهم ، ونصائحهم ، وإرشادهم لأممهم – فتجد كلاماً منسقاً وهدياً منسجماً ، صدر عن مشكاة واحدة ، وانساق إلى هدف واحد ، يُمهد أوله لأخره ، وتصدق نهاياته بداياته وكأنهم خطباء في حفل واحد ، اجتمعوا في أمسية موعودة أو ليلة مشهودة ، وليسوا رجالاً توزعتهم أكناف القرون المتطاولة ، فبين النبي والنبي أعصار ، وأعصار ، وبين الأمة ، والأمة غبرت قرى ، وبادت أمصار .

فهذا القصص القرآني الموصول يدل على حقيقة الدين ، ويحدد تحديداً حاسماً الطريقة الوحيدة لمرضاة رب العالمين ." [1]

ويقول الشهيد سيد قطب – رحمه الله - : " وقصص الأنبياء في القرآن يمثل موكب الإيمان في طريقه الممتد الواصل الطويل . ويعرض قصة الدعوة إلى الله واستجابة البشرية لها جيلاً بعد جيل؛ كما يعرض طبيعة الإيمان في نفوس هذه النخبة المختارة من البشر ، وطبيعة تصورهم للعلاقة بينهم ، وبين ربهم الذي خصهم بهذا الفضل العظيم . . وتتبع هذا الموكب الكريم في طريقه اللاحب يفيض على القلب رضي ونوراً وشفافية ؛ ويُشعره بنفاسة هذا العنصر العزيز - عنصر الإيمان - وأصالته في الوجود . كذلك يكشف عن حقيقة التصور الإيماني ويميزه في الحس من سائر التصورات الدخيلة ، ومن ثم كان القصص شطراً كبيراً من كتاب الدعوة الكريم . ." [2].

الحكمة الثالثة : الهداية والتربية والإصلاح :

فإذا كان القرآن العزيز كتاب هداية ، وتربية ، و إصلاح ، فلا شك أن القصة كانت من أنجع الأساليب في كل تلك المطالب السامية ، لاسيما إذا كان الذي يقصها هو خالق الناس ورب العالمين ، إنها ساعتئذ تكون شفاء لما في الصدور ، ووقاية من الآثام للمجتمعات التي تتخذ من قصص رب العالمين مدرسة تتخرج منها الأجيال .

([1]) نظرات في القرآن ، للشيخ محمد الغزالي ص ١١٤ ،١١٥ بتصرف يسير .
([2]) في ظلال القرآن – (ج ١ / ص ٢٧)

فـ" قد جاء البيان القرآنيّ عن مراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ من عباده مازجًا بين سياقين :سياقٍ تشريعِيٍّ عمادُه الأمرُ والنَّهي على اختلاف مسالكهما وصورهما

وسياقٍ تثقيفيٍّ عماده الترغيب والترهيب .

ولا يكاد سياق منهما يتجرد من صحبة الآخر ، فهما قائمان معا ، وإن تباينت درجات ظهور أحدهما ولطف الآخر .

والقصص القرآنيِّ الكريم ضرب مـــن ضروب التثقيف النفسيّ والقلبيّ ترغيبًا وترهيبًا ." (١)

" فهو من أنجع الطرق التي اتبعها القرآن الكريم في تأديب النفوس ، وسياسة الجماعات ، والمحاورات النابضة التي أثبتها هي معالم خالدة لضبط الحقيقة ، وتوليد العبرة منها ، ولا ريب أن ما يعقب هذه الأخبار المروية من مغازٍ وتعليقات مثيرة حقاً .

ومع ذلك ، فإن الحوار نفسه قد يتضمن من المعاني ما يجتاز به نطاق قصته الخاصة ليكون خطاباً يتردد صداه عبر الزمان والمكان . انظر إلى موقف الرجل المؤمن في آل فرعون وتتبعه وهو يناشد قومه أن يتوبوا للرشاد ، ويخضعوا للحق .

(١) الإمام البقاعي ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن د/ محمود توفيق محمد سعد ص٢٥٢ .

لقد كان هذا الرجل الكبير مثلاً في أناته وثباته ، بدأ يتكلم وكأنه محايد لا يعنيه من الأطراف المتنازعة إلا أن يلزم الجادة ويدع التطرف !!

فعندما رأى فرعون أن يقتل موسى- عليه السلام - قال :

{ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ ...}. **غافر٢٨**

هكذا استبعد بالمنطق الرزين أن يُقتل نبي كريم ..غير أن الصراع بين الحق والباطل لا بد أن يبلغ مرحلة يُنزع معها ثوب الحياد ، ولا بد أن يجيء دور المصارحة التي لا تبالي بجهر أو تكَّشف ...

وهنا يجأر الرجل بما في نفسه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾ **غافر ٣٨ ،٣٩**

ويمضي في نصحه إلى أن يختمه بهذه الكلمات الحارة :

{ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ }{٤٤}

هذه النصيحة الصادقة في أطواء قصة فرعون وبني إسرائيل ليست بنت زمنها وحده ، لكأنها يوم نزل الوحي بها تناشد صناديد مكة وسائر

أحزاب الكفر ، ثم هي لا تزال تنساب إلى كل قلبٍ في أرجاء الدنيا ، تغزوه بما يترقرق فيها من يقين وسلام وحب .."[1]

قال الإمام أبو العباس أحمد بن زروق : " التأثير بأخبارٍ عن الوقائع أتم لسماعها من التأثير بغيرها فمن ثم قيل : الحكايات جند من جنود الله يثبت الله بها قلوب العارفين . قيل : فهل تجد لذلك شاهداً من كتاب الله ؟ قال { وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ } هود ١٢٠ ، ووجه ذلك أن شاهد الحقيقة بالفعل أظهر وأقوى في الانفعال من شاهدها اللغوي إذ مادة الفاعل مستمرة في الفعل لغابر الدهر ." [2]

يقول الشهيد سيد قطب : "...وإنه لما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغي ، أو المستهتر الفاسد ، أو الملحد الكافر ، ممكناً له في الأرض ، غير مأخوذ من الله . . ولكن الناس إنما يستعجلون ، إنهم يرون أول الطريق أو وسطه ؛ ولا يرون نهاية الطريق . . ونهاية الطريق لا تُرى إلا بعد أن تجيء ! لا تُرى إلا في مصارع الغابرين بعد أن يُصبحوا أحاديث . . والقرآن الكريم يُوجه إلى هذه المصارع ليتنبه المخدوعون الذين لا يرون - في حياتهم الفردية القصيرة - نهاية الطريق ؛ فيخدعهم ما يرون في حياتهم القصيرة ويحسبونه نهاية الطريق!" .[3]

---

[1] نظرات في القرآن ص ١١٧، ١١٨

[2] تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل ١/ ٤٠ محمد جمال الدين القاسمي ط دار الفكر – بيروت – الثانية ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م .

[3] في ظلال القرآن ٣/٤٩٠.

الحكمة الرابعة :التعريف بطبائع الناس ووسائل علاجها وسنن الله في عقابها أو معافاتها:

فالقصص القرآني يختزل خلاصة التجربة البشرية في العيش على هذه الأرض فهو يشتمل على صور من التاريخ الإنساني في حقب مختلفة من الزمن نشاهد فيها المجتمعات البشرية في غيها ورشدها ، وسقوطها ، ونهوضها، وهو بذلك يُقدم للإنسانية ذخيرة من ماضيها لتتدبرها ، وتأخذ منها عبراً تُجنبها الزلل ، وترشدها نحو الصواب لا سيما و " الحياة الإنسانية فوق هذه الأرض متشابهة في استقامتها وانحرافها ، ... ولذا فإن القصص القرآني يحدثنا أحاديث نجد فيها أنفسنا ، أو نجد فيها رجالاً من حولنا ، فكأنما النصوص وهي تروى قصة فلان تُحدثنا عما نعانيه من البلاء ، أو ننعم به من الرخاء ، أو كأنما هي تحدثنا عن الحاكم العادل الذي يعيش بيننا ، أو الجبار الطاغية الذي يصول ويجول مفسداً في الأرض ، وقد تحدثنا عن نماذج إنسانية عادية ، فقد يكون المتحدث عنه مزارعاً صالحاً ، أو تاجراً أميناً صادقاً أو إنساناً رحيماً ، وقد نرى هذا النموذج في فلاحٍ نعرفه ، أو تاجرٍ نُعامله ، أو رجلٍ أصابنا نفحات من رحمته . " (١)

يقول شيخ الأدباء الجاحظ – رحمه الله - " استوت عِلل العامَّة ... وتشابهت، فالعامَّة والباعَة والأغنياء والسِّفْلة كأنَّهم أعذارُ عامٍ واحد (٢) ،

(١) صحيح القصص النبوي ص ١٥ بتصرف يسير ، عمر سليمان الأشقر ، ط : دار النفائس ، الرابعة ١٤٢٠ – ١٩٩٩م .
(٢) يقصد أنهم في تشابه أخلاقهم كأنهم أبناء عام واحد .

وهم في باطنهم أشدُّ تشابهاً من التوأمين في ظاهرهما، وكذلك هم في مقادير العقول ، وفي الاعتراض والتسرُّع ، وإن اختلفت الصُّور والنَّغَم ، والأسْنان والبلدان ، تشابه طبائع العامّة في كلّ بلدةٍ ، وفي كل عصر ، وذكر اللهَّ ﷻ ردَّ قريشٍ ومُشركي العَرَبِ على النبيِّ ﷺ قولَهُ ، فذكر ألفاظهم ، وجَهْد معانيهم ، ومقادير هممهم التي كانت في وزن ما يكون من جميع الأمم إلى أنبيائهم، فقال :{ تَشَابَهتْ قُلُوبُهمْ }(١) وقال: {أتَواصَوْا بهِ}(٢) ثم قال:{ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُواْ } ومثلُ هذا كثير ." (٣)

يقول الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ : " الإنسان هو الإنسان ، من مائة قرن خلت إلى مائة قرن يلدها المستقبل المنظور – لو امتد أجل الحياة – لن تتغير طبيعته ، ولن يتبدل جوهره ... وقد تتغير وسائل تعبيره عما يهوى ، وقد تتبدل مظاهر إشباعه لما يريد ، ولكنه هو هو ، إذا استكبر فلم يجد إلا خشية خلقة تبختر فيها ، وخرج من كهفه مغروراً ، وعندما يرتقى العلم ، وتتغير البيئة يلبس المنمنم من نسج الآلات وينطلق في الميادين مزهواً ...فإذا وعى القرآن قصص الأولين مع أنبيائهم ، وجدد على الناس ذكرها بعد ما طوت الليالي أصحابها فلكي يُداوي عللاً متشابهة .

وقد كثرت القصص لتحصى جملة كبيرة من الأمراض الاجتماعية ، وتستأصل جرثومتها بصنوف العبر وشتى النذر .

---

(١) {﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ }البقرة١١٨ .

(٢) { كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ{٥٢} أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ{٥٣} الذاريات

(٣) انظر كتاب الحيوان للجاحظ ٢/ ١٠٤ ، ١٠٥ .

إن الحضارات المندثرة كجثث الموتى قد يشرحها مبضع الطبيب ليتعرف أسباب هلاكها ، وليضيف بهذه المعرفة حصانة جديدة إلى علم الطب تتوقى بها الإنسانية ما تجهل من متاعب وآلام .

والمجتمعات التي طواها الماضي ، وهمدت تحت الثري يجب إذا نضبت الحياة منها أن تُتعرف كيف عاشت ؟ وكيف تصادقت وتخاصمت ؟ وهل تلاقت على جد أو مجون ؟ واستجابت للحق أو للباطل ؟

إن هذه الأسئلة تعنينا نحن ، وعلى ضوء إجابتها قد تستقيم خطانا من عوج وقد نوفق للصواب بعد شروط " (١)

الخامسة : تثبيت فؤاد النبي ﷺ وصحابته الكرام وأهل الحق من بعدهم .

وتتبين حقيقة هذه الحكمة من الآيات القرآنية الآتية :

{ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ } **هود ١٢٠.**

{فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ...} **الأحقاف ٣٥**

{ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ } **الأنعام ٣٤**

---

(١) نظرات في القرآن ص ١١٥ ،١١٦.

يقول الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ : " حيث ذكر قصص الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كنوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وموسى ، وهارون ، فإنما ذلك تسلية لمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وتثبيتاً لفؤاده لما كان يلقى من عناد الكفار ، وتكذيبهم له على أنواع مختلفة ، فتذكر القصة على النحو الذي يقع له مثله ، وبذلك اختلف مساق القصة الواحدة بحسب اختلاف الأحوال ، والجميع حق واقع لا إشكال في صحته " .[١]

(١) الموافقات ج٣/ص٤١٩

المبحث الثاني
القصص القرآني وعلاقته بعلم التاريخ

١ـ أسلوب القرآن الخاص في تناول التاريخ :

القصص القرآني أصدق أنموذج للتاريخ البشري فإذا اهتدينا للمنهج الأمثل للاعتبار به ، نكون قد وفقنا للانتفاع بما نقرأه من التاريخ ، فإذا كان القرآن الكريم ليس كتاب تاريخ بالمعني الاصطلاحي ، فهو لا شك علمنا كيف نفهم التاريخ ، ونفسره ، وننتفع به ، والقول بأن القرآن ليس كتاب تاريخ يجب أن يُفهم فهماً صحيحاً ، فالذين أطلقوا هذه العبارة لا يعنون بها أن القرآن لم يشتمل على شيء من أحداث التاريخ ، فإن قصص القرآن هو حكاية لوقائع من تواريخ الأفراد والأمم وإنما يقصدون أن القرآن العزيز لم يسلك مسلك كتب التاريخ في أسلوبها ، ومضمونها فهو " لا يذكر الوقائع والحوادث بالترتيب ، ولا يستقصي فيذكر الطمّ والرمّ ، ويأت فيها بالجرة وأذن الجرة كما في بعض الكتب التي تسميها الملل الأخرى مقدسة ... " .[١]

فقصص القرآن الكريم يُركز على الكليات ، وعلى الحركة الإجمالية لمجرى التاريخ ومغزى هذه الحركة .

٢ـ من فوائد علم التاريخ :

" وليس المراد بنفي كون القرآن كتاب تاريخ ، أن التاريخ شيء باطل ضارّ ينزه القرآن عنه .كلا . إن قصصه شذور من التاريخ تُعلم الناس كيف

---

(١) انظر تفسير القاسمي ١/ ١١٤

ينتفعون بالتاريخ ، فمثل ما في القرآن من التاريخ البشري كمثل ما فيه من التاريخ الطبيعي من أحوال الحيوان ، والنبات والجماد ، ومثل ما فيه من الكلام في الفلك . يُراد بذلك كله التوجيه إلى العبرة ، والاستدلال على قدرة الصانع وحكمته ؛ لا تفصيل مسائل العلوم الطبيعية ، والفلكية التي مكن الله البشر من الوقوف عليها بالبحث ، والنظر والتجربة ، وهداهم إلى ذلك بالفطرة وبالوحي معاً ." (١)

قال ابن الأثير عن فائدة التصنيف في التاريخ :

" رأيت جماعة ممن يدعي المعرفة ، والدراية ، ويظن بنفسه التبحر في العلم ، والرواية يحتقر التواريخ ، ويزدريها ، ويُعرض عنها ، ويُلغيها ظناً منه أن غاية فائدتها إنما هو القصص والأخبار ، ونهاية معرفتها الأحاديث والأسمار ، وهذه حال من اقتصر على القشر دون اللب نظره ، وأصبح مخشلباً (٢)جوهره، ومن رزقه الله طبعاً سليماً ، وهداه صراطاً مستقيماً علم أن فوائدها كثيرة ، ومنافعها الدنيوية والأخروية جمة غزيرة ، وها نحن نذكر شيئا مما ظهر لنا فيها ، ونكل إلى قريحة الناظر فيه معرفة باقيها .

<u>فأما فوائدها الدنيوية :</u> فمنها أن الإنسان لا يخفي أنه يُحب البقاء ، ويُؤثر أن يكون في زمرة الأحياء ، فيا ليت شعري أي فرق بين ما رآه أمس

---

(١) انظر تفسير القاسمي ١/ ١١٤، ١١٥.

(٢) قال المُتَنَبِّي : بَيَاضُ وَجْهٍ يُريكَ الشمسَ حَالِكَة ... ودُرُّ لَفْظٍ يُريك الدُّرَ مَخْشَلَبَا . وهي خَرَزٌ بيضٌ يُشَاكِل اللُّؤْلُؤَ يَخْرُجُ من البَحْرِ وَهُوَ أَقلُّ قِيمَةً .
وقال الو احدي في شَرْح الدِّيوَان : هُوَ خَرَزٌ ولَيْسَت بعَرَبيَّة ولكنَّه اسْتَعْمَلَهَا عَلَى مَا جَرَت بهِ . تاج العروس - (ج ١ / ص ٦٠٩)

أو سمعه ، وبين ما قرأه في الكتب المتضمنة أخبار الماضين ، وحوادث المتقدمين ، فإذا طالعها فكأنه عاصرهم ، وإذا علمها فكأنه حاضرهم ، ومنها أن الملوك ، ومن إليهم الأمر ، والنهي إذا وقفوا على ما فيها من سيرة أهل الجور والعدوان ، ورأوها مدونة في الكتب يتناقلها الناس ، فيرويها خلف عن سلف ، ونظروا إلى ما أعقبت من سوء الذكر ، وقبيح الأحدوثة ، وخراب البلاد ، وهلاك العباد ، وذهاب الأموال ، وفساد الأحوال استقبحوها ، وأعرضوا عنها ، واطرحوها ، وإذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها ، وما يتبعها من الذكر الجميل بعد ذهابهم ، وأن بلادهم وممالكهم عمرت ، وأموالها درت استحسنوا ذلك ، ورغبوا فيه ، وثابروا عليه ، وتركوا ما ينافيه . هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الآراء الصائبة التي دفعوا بها مضرات الأعداء وخلصوا بها من المهالك ، واستصانوا نفائس المدن ، وعظيم الممالك ، ولو لم يكن فيها غير هذا لكفى به فخراً ، ومنها ما يحصل للإنسان من التجارب ، والمعرفة بالحوادث ، وما تصير إليه عواقبها فإنه لا يحدث أمر إلا قد تقدم هو أو نظيره فيزداد بذلك عقلاً، ويُصبح لأن يقتدي به أهلاً ...

وأما الفوائد الأخروية :

فمنها أن العاقل اللبيب إذا تفكر فيها ، ورأى تقلب الدنيا بأهلها ، وتتابع نكباتها إلى أعيان قاطنيها ، وأنها سلبت نفوسهم وذخائرهم ، وأعدمت أصاغرهم ، وأكابرهم فلم تبق على جليلٍ ، ولا حقيرٍ ، ولم يَسلم من نكدها غني ، ولا فقير زهد فيها ، وأعرض عنها ، وأقبل على التزود للآخرة منها ، ورغب في دار تنزهت عن هذه الخصائص ، وسلم أهلها من هذه النقائص .

ولعل قائلاً يقول : ما نرى ناظراً فيها زهد في الدنيا وأقبل على الآخرة ، ورغب في درجاتها العليا. فيا ليت شعري ! كم رأى هذا القائل قارئاً للقرآن العزيز ، وهو سيد المواعظ وأفصح الكلام يُطلب به اليسير من هذا الحطام ، فإن القلوب مولعة بحب العاجل .

ومنها التخلق بالصبر والتأسي ، وهما من محاسن الأخلاق ، فإن العاقل إذا رأى أن مصاب الدنيا لم يسلم منه نبي مكرم ، ولا ملك معظم بل ، ولا أحد من البشر علم أنه يصيبه ما أصابهم ، وينوبه ما نابهم ... ولهذه الحكمة ، وردت القصص في القرآن المجيد { إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ }.ق٣٧ ، فإن ظن هذا القائل أن الله سبحانه أراد بذكرها الحكايات ، والأسمار فقد تمسك من أقوال الزيغ بمحكم سببها حيث قالوا هذه أساطير الأولين اكتتبها " . [1]

٢ـ القرآن أوثق مصادر التاريخ :

وكون القرآن ليس كتاب تاريخ بالمعنى الاصطلاحي لا ينفي كونه المصدر الحق من بين مصادر التاريخ جميعاً ، و أن فقرات التاريخ التي ذُكرت في قصصه هي أصدق ، وأوثق مصادر التاريخ في موضوعها ؛ ذلك أن الذي يقصها هو الله ﷻ الذي أحاط بكل شيء علما .

وكان من جهل المشركين ، وتلاعب الشيطان بهم أن وصفوا قصص القرآن بأنه حكايات اختلطت بها الخرافات ، فقالوا كما أنبأنا القرآن الحكيم :{ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا }. الفرقان٥ ،

([1]) انظر الكامل في التاريخ ٩/١ ، ١٠ .

ورد عليهم رب العالمين فقال : { أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا }. الفرقان ٦ . ووصف الله - عز وجل- نفسه في معرض الرد عليهم بأنه يعلم السر في السماوات ، والأرض ؛ لنعلم الحقيقة ، وهي أنه كيف يتأتي أن يُرمي كلام مَنْ هذا شأنه بأنه أساطير الأولين ، فإنه إنما يُلجأ للخيال ، والخرافة في القصص عند عدم العلم بحقائق التاريخ ، والله - تباركت أسماؤه - لا يعلم من التاريخ جهره فقط بل ويعلم سره كذلك ، بل يعلم السر في السماوات ، والأرض ماضيه ، وحاضره ومستقبله ، ولنتأمل لفظ {السر} ، وكيف جاء بأل الاستغراقية فهو لا يستثني سراً من الأسرار مهما كان خفياً .

وانظر إلى ختام الآية {إنه كان غفوراً رجيماً} ففيها بيان أنه - تعالى- مع علمه بأسرار خلقه ، وما فيها من آثام وذنوب إلا أنه يمهلهم ويصبر عليهم ، وذلك لأنه كان ، ولم يزل غفوراً رحيماً .

المستشرقون والعلمانيون على درب المشركين :

وليس من الغريب أن يتبنى المستشرقون ، والعلمانيون كلام المشركين فيصفون قصص القرآن بأنه سردٌ أدبي فيه ما في القصص الأدبية من المبالغة، والمجازفة وعدم التزام الحقيقة في سرد الأحداث ، وإنما قلت ليس ذلك من الغريب لأنها سنة الله في أهل الضلال أن يُكرر الخلفُ منهم قولَ السلف ، وذلك لتشابه قلوبهم وإصرارهم على الطغيان .

وصدق العليم الخبير:{... كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ ...}.البقرة١١٨

{... أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ }.الذاريات٥٣

والثابت الذي لا مِرية فيه أن قصص القرآن الكريم بكل ما فيه من تفاصيل هو قصص حق ، وقائل غير ذلك إنما يُخالف معلوماً من الدين بالضرورة ، وما هو ثابت بالأدلة العقلية المتكاثرة التي لا تُنقض .

أما أن ذلك معلوم من الدين بالضرورة فيكفي أن نقرأ بعضاً يسيراً من الآيات قطعية الدلالة على ذلك :

١- {وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا }. الإسراء١٠٥

٢- { تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ }. آل عمران١٠٨

٣- { تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ }. الجاثية ٦

٤- {وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ ...}. المائدة٢٧

٥- { نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى }. الكهف١٣

٦- { نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }.القصص٣

وأما أن الأدلة العقلية متكاثرة في الدلالة على ذلك ، فيكفي منها أن نعلم أن عِلْمي التاريخ ، والآثار لم يثبت فيهما ما يخالف شيئاً مما ورد في قصص القرآن الكريم ، بل العكس هو الصحيح ، فإن من أنواع الإعجاز القرآني (الإعجاز التاريخي) ومن أمثلته :

ما ورد في قصة يوسف ـ عليه السلام ـ من وصف حاكم مصر بالملك ، ووصفه في قصة موسى بالفرعون ، وذلك من لطائف العلم بالتاريخ ؛ ذلك أن الذي كان يحكم مصر زمن موسى ـ عليه السلام ـ كان مصرياً فَلقب نفسه بالفرعون على عادة الملوك المصريين ، وأما من كان يحكم مصر في زمن يوسف ـ عليه السلام ـ فلم يكن مصرياً ، بل من الهكسوس الذين كانوا يحتلون مصر في تلك الفترة ، فكان يُلقب نفسه بالملك نفوراً من لقب فرعون الذي كان يتخذه أعداءه .

القرآن الكريم يستخدم التاريخ الصادق لتحقيق مقاصده :

والقرآن الكريم يستخدم التاريخ للترغيب ، والترهيب ، وتربية الشعوب ، فنراه " في موقف التهديد يلفت أعناق العرب ، وأنظارهم ، وقلوبهم ، وأعصابهم إلى مصارع المكذبين من قبلهم وقد كانوا يعرفون بعضها في دور عاد بالأحقاف، وثمود بالحجر ، وكانت أطلالهم باقية يمر عليها العرب في رحلة الشتاء للجنوب ، وفي رحلة الصيف للشمال ، كما كانوا يمرون بقرى لوط المخسوفة ، ويعرفون ما يتناقله المحيطون بها من أحاديث ، }. [1]

٣ـ تفسير القرآن للتاريخ :

والقرآن الكريم يقدم لنا تفسيره الخاص للتاريخ ، فهو مثلاً عندما يتحدث عن سبب هلاك من هلك من الشعوب يقول : { فأهلكناهم بذنوبهم } "

([1]) في ظلال القرآن بتصرف ٤٥٩/٣.

فهذا النص وما يماثله ، وهو يتكرر كثيراً في القرآن الكريم . . إنما يقرر حقيقة ، ويقرر سنة ، ويقرر طرفاً من التفسير الإسلامي لأحداث التاريخ .

إنه يقرر حقيقة أن الذنوب تُهلك أصحابها ، وأن الله هو الذي يهلك المذنبين بذنوبهم؛ وأن هذه سنة ماضية - ولو لم يرها فرد في عمره القصير ، أو جيل في أجله المحدود - ولكنها سنة تصير إليها الأمم حين تفشو فيها الذنوب؛ وحين تقوم حياتها على الذنوب . . كذلك هي جانب من التفسير الإسلامي للتاريخ : فإن هلاك الأجيال واستخلاف الأجيال؛ من عوامله ، فعل الذنوب في جسم الأمم ؛ وتأثيرها في إنشاء حالة تنتهي إلى الدمار؛ إما بقارعة من الله عاجلة - كما كان يحدث في التاريخ القديم - وإما بالانحلال البطيء الفطري الطبيعي ، الذي يسري في كيان الأمم - مع الزمن - وهي توغل في متاهة الذنوب!

وأمامنا في التاريخ القريب - نسبياً - الشواهد الكافية على فعل الانحلال الأخلاقي ، والدعارة الفاشية ، واتخاذ المرأة فتنة وزينة ، والترف والرخاوة ، والتلهي بالنعيم . . أمامنا الشواهد الكافية من فعل هذا كله في انهيار الإغريق والرومان - وقد أصبحوا أحاديث - وفي الانهيار الذي تتجلى أوائله ، وتلوح نهايته في الأفق في أمم معاصرة ، كفرنسا وانجلترا كذلك - على الرغم من القوة الظاهرة والثراء العريض .إن التفسير المادي للتاريخ يحذف هذا الجانب حذفاً باتاً من تفسيره لأطوار الأمم وأحداث التاريخ ، ذلك أن وجهته ابتداء هي استبعاد العنصر الأخلاقي من الحياة ، واستبعاد القاعدة الاعتقادية التي يقوم عليها . . ، ولكن هذا التفسير يضطر إلى مماحكات مضحكة في تفسير أحداث، وأطوار في حياة البشرية لا سبيل إلى تفسيرها إلاّ على أساس القاعدة الاعتقادية. والتفسير الإسلامي - بشموله وجديته وصدقه وواقعيته - لا يغفل أثر العناصر المادية -

التي يجعلها التفسير المادي هي كل شيء ـ ولكنه يعطيها مكانها الذي تستحقه في رقعة الحياة العريضة ؛ ويُبرز العناصر الفعالة الأخرى التي لا ينكرها إلاّ أصحاب العناد الصفيق لواقعيات الوجود . . يُبرز قدر الله من وراء كل شيء ؛ ويبرز التغير الداخلي في الضمائر ، والمشاعر ، والعقائد ، والتصورات ؛ ويبرز السلوك الواقعي ، والعنصر الأخلاقي . . ، ولا يغفل عاملاً واحداً من العوامل التي تجري بها سنة الله في الحياة . ." (١)

---

(١) في ظلال القرآن ٤/٥١٩.

المبحث الثالث
قصص القرآن الكريم ينظم علاقتنا بالتاريخ

التشبث بالماضي والتفكير فيه جزء من فطرة الإنسان ، ومحاولة تقمص هذا التاريخ وإحياءه هو نتيجة طبيعية لهذا الارتباط ، وقد تنبه هرقل الروم لذلك في أسئلته لأبي سفيان عن رسول الله ﷺ قائلاً له : "...وَسَأَلْتُكَ هل كان من آبَائِهِ من مَلِكٍ فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ فقلت : لو كان من آبَائِهِ مَلِكٌ قلت : يَطْلُبُ مُلْكَ آبَائِهِ ..."(١)

و طلب ملك الآباء إنما هو من تجليات التأثر بالتاريخ .

وكان من تربية يعقوب عليه السلام لابنه يوسف عليه السلام أن ربطه بالتاريخ المشرق لآبائه الأخيار فقال له وهو لا يزال في ميعة صباه : { وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ **}. يوسف٦**

ومن ثمار هذه التربية بالتاريخ أن يوسف عليه السلام أضاء بها ظلمات السجن ، وانتصر بها في محنته ، وضمنها دعوته ، فقال لصاحبي السجن :{ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ **} يوسف٣٨.**

---

(١) صحيح البخاري ج ٣ ص ١٠٧٦ .

فإذا كان الإنسان شديد الارتباط بالماضي ، وواقع لا محالة تحت تأثيره ، فإن الانفعال بالتاريخ ليس دائماً إيجابياً ، وهنا يأتي دور التوجيه الرباني ليصبح التاريخ عامل بناء وارتقاء في حياة الأفراد ، والشعوب لا عامل هدم وانحدار .

وقد وجدنا القرآن الكريم يتخذ موقفاً وسطاً من علاقة الإنسان بالتاريخ ؛ فهو لا يطلب منه أن يقطع صلته به ، وهو كذلك يرفض أن يعيش الإنسان أسيراً لهذا الماضي بالكلية بحيث تنمحق ذاته في التاريخ ، ويصبح سلبياً يقول : ليس في الإمكان أبدع مما كان أو يجند نفسه لإحياء الفصول السيئة في التاريخ لا لشيء إلا لأنه تاريخ الآباء والأجداد .

ولعلنا نلاحظ حض القرآن علي دراسة تاريخ الأمم ، في نفس الوقت الذي نراه يرفض الانقياد الأعمى لذلك التاريخ .

ونستطيع أن نستخلص بعض القوانين القرآنية في منهج التعامل مع التاريخ.

أ- فعل الآباء والأجداد لشيء لا يصلح وحده دليلا على صواب ذلك الشيء.

إن التاريخ هو تركة الآباء والأجداد للأبناء والأحفاد ، والقرآن يأمرنا أن نفحص هذه التركة من الأفعال والأقوال ، ونعرضها على أصول الدين ، وقواعد الشرع ، ومسلمات العقل ، والاقتداء بالصواب منها ، واجتناب الخطأ .

أما الذين يفعلون ما يخالف العقل والنقل ، وليس لهم ما يحتجون به إلا أنه من فعل الآباء ، فهؤلاء هم الذين كرر القرآن الحكيم الإنكار عليهم ، وبيَّن ضلال وجهتهم ، ولنتأمل هذه المواضع من الذكر الحكيم :

١- **قال ﷻ :** {وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ } **الزخرف٢٣**

في هذه الآية بيَّن الله ﷻ أمرين :

أُولهما : **أن الاحتجاج بفعل الآباء على رد دعوة الرسل هو سنة مطردة في المجتمعات البشرية يظهر ذلك في أسلوب الآية المفيد للعموم فإن كلمة " قرية " نكرة جاءت في سياق النفي وهذا من صيغ العموم ، وأيضاً بدء الجملة بلفظ " كذلك " يفيد اطراد هذه السنة .**

ثانيهما : **أن من يتولى كِبر هذا الفعل هم المترفون وهم أولئك المنعمون المستفيدون من الوضع القائم ، وإن كان خطأً ، وضلالاً ، فلا يبغون عنه تحويلاً حتى لا يفقدوا سطوتهم ، وكبريائهم في الأرض بغير حق ، وهؤلاء هم الذين عبر الله عنهم في كتابه بالملأ ، وهو يتحدث عمن كذب الرسل وآذاهم، ومنهم الذين قالوا لموسى عليه السلام :** ﴿...أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ **يونس٧٨ .**

٢- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ **لقمان٢١**

في هذه الآية بيَّن - سبحانه وتعالى- أن هذا الخطأ المنهجي في الاستدلال ، وتكوين العقائد هو من مكايد الشيطان ، وحبائله التي يجر بها بني آدم إلى هاوية السعير أعاذنا الله منها .

ومدخل الشيطان في ذلك للنفس البشرية هو ذلك الميل الفطري ، والحنين القلبي من الأبناء لفعل الآباء ، فإن النفس البشرية لا تَطْرَبُ لشيءٍ طربها لسماع مفاخر الآباء والأجداد ، وتلك شهوة طاغية لا يسلم منها إلا من يعرف الرجال بالحق ، أما الذي يعرف الحق بالرجال فهو يُلبى دعوة الشيطان الذي يدعوه إلى عذاب السعير ، ولعل ما فعله أبو جهل مع أبى طالب ، وهو على فراش الموت لون من الاستغلال الخبيث لذلك الميل الفطري الذي ذكرناه فإن " أبا طالب لما حضرته الوفاة ، دخل عليه النبي ﷺ ، وعنده أبو جهل ، فقال ﷺ : أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله . فقال أبو جهل ، وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب ترغب عن ملة عبد المطلب ! فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به : على ملة عبد المطلب فقال النبي ﷺ : لأستغفرن لك ما لم أنه عنه فنزلت : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ **التوبة١١٣ ، ونزلت:** ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ **القصص٥٦"**[1]

٣- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ **البقرة١٧٠**

---

(١) صحيح البخاري ج٣ ص١٤٠٩ حديث رقم ٣٦٧١ .

٤- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ **المائدة ١٠٤**

٥- ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ **الأعراف٢٨**

في هذه المجموعة من الآيات يُبين الله ﷻ تهافت تلك الدعوى وبطلان ذلك الاحتجاج فيقول : إذا كان الآباء {لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ} ، و{لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ}

أي إنهم ضالون على كل حال ، سواء كان سبب ضلالهم ضعف عقولهم في ذاتها ، أو انعدام العلم الصحيح فيهم ، فهل يُعتبر فعلهم مع ذلك جديراً بأن يُقلد ويُحتذي ؟!.

ويبدوا أنهم شعروا بتهافت حجتهم تلك ، فبحثوا فلم يجدوا فافتروا كذباً ، وقالوا {وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا }فرد عليهم القرآن رداً مفحماً فقال : {... إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}.

بـ في مجال الحساب والجزاء يصير التاريخ حياديا .

فلن يُسأل الأبناء ، والأحفاد عما فعل الآباء ، والأجداد ، إلا إذا رضوا بفعلهم، وقلدوهم ،واتبعوهم في أفعالهم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

يُقرر العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز دستور القرآن الأخلاقي في هذه المسألة فيقول :

" المسئولية الأخلاقية ، والدينية شخصية محضة ، ولسوف يكون من باب الإطالة أن نذكر جميع النصوص القرآنية التي تُقر هذا المبدأ الأساسي ، ولذا نجتزئ بعضها ، وهي التي تنص على هذه الحقيقة في آيات:

{ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ } **البقرة ٢٨٦ .**

{وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ} **النساء ١١١.**

{ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ } **الإسراء ١٥ .**

{ لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا }**لقمان ٣٣ .**

{ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ } **غافر ١٧ .**

{ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ } **الأحقاف ١٩ .**

{ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ } **النجم ٣٩ .**

وينتج من هذا كله بوضوح أن الثواب والعقاب لا يمكن أن يتأتى فيهما أي تحويل ، أو امتداد ، أو اشتراك أو التباس ، حتى بين الآباء والأبناء ؛ وإذا كان آبائنا ، وأجدادنا مسئولين مثلاً عن الأمثلة التي لقنوها لنا ، والعادات التي أخذناها عنهم ، وإذا كنا مسؤلين عن الطريقة التي استعملنا بها هذه التركة ، فلا يجب مطلقاً أن نتحمل معهم وزر ما عملوا :

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ البقرة ١٣٤." [1]

ويحكي لنا القرآن محاورة مثيرة ، نجد فيها الأمم التي لم تُحسن التعامل مع التاريخ تُلقي باللائمة على الأمم التي سبقتها : ﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ **الأعراف ٣٨ ، ٣٩ .**

هكذا قالت أخراهم لأولاهم إن عملكم من كسبكم فلا تلومونا .

[1] دستور الأخلاق في القرآن د / عبد الله دراز١٤٨،١٤٩ تعريب د/ عبد الصبور شاهين ط. دار الرسالة التاسعة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

المبحث الرابع

نماذج من آثار العلاقة المعوجة بالتاريخ

(١)

علاقة اليهود بالتاريخ وتأثيره فيهم

لم يُؤثر التاريخ في قوم كما أثر في اليهود ، ولم يفهم قومٌ التاريخ فهماً معوجاً كما فهمه اليهود ، ولذلك وجدنا القرآن الحكيم يُفرد من آياته الكثير لعلاج ما فسد من فهم اليهود للتاريخ ، ويناديهم ببني إسرائيل ، وهو تذكير ضمني بتاريخ النبي الكريم يعقوب - عليه السلام – علهم يتذكرونه ويقتدون بحياته .

ومن مظاهر تعاملهم الخاطئ مع التاريخ ما يلي :

١- الانتقائية في فهم التاريخ :

فهم يُبالغون أشد المبالغة في تذكر ما يعتقدون أنه مظالم تاريخية وقعت بهم ، ولا يربطون تلك المظالم بأسبابها ، وهي معاصيهم وانحرافاتهم عن الدين الإلهي . بل كل ما يفكرون فيه هو الانتقام ، وهذه الانتقائية في التعامل مع التاريخ تُفرز نفسيةً مريضةً منحرفةً عن الفطرة السوية ، فنراها عندما تملك القوة المادية تطغي وتجور ، وتظلم ، وتُفرط في إيذاء الخصم

وإذلاله ، وعندما تفقد تلك القوة تذل غاية الذلة ، وتخضع غاية الخضوع ، وتداهن أصحاب القوة .

ومنهج القرآن في علاج هذه العلة ما يلي :

أولا : التذكير بالجانب الإيجابي من التاريخ فيذكرهم بنعم الله عليهم :

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ البقرة٤٠.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ البقرة١٢٢.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴾ طه٨٠ .

ثانيا : ربط أحداث التاريخ بأسبابها : فما من كارثة حلت بهم إلا ، وقد ارتكبوا ما يستوجبها .

يُوضح القرآن الكريم ذلك في قوله تعالى : ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ۝٥ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنۡ

أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴾الإسراء ٤-٨ .

٢- العنصرية في فهم التاريخ :

كما فهم اليهود العقوبات الإلهية التي حلت بهم فهماً خاطئاً ، كذلك فهموا النعم التي أنعم الله عليهم بها فهماً خاطئاً ؛ فاعتقدوا أنهم استحقوها بسبب تفضيل خاص بجنسهم ، وزعموا أنهم شعب الله المختار ، ونظروا إلي الشعوب الأخرى نظرة استعلائية ، واستحلوا ما حرم الله عليهم من دماء الآخرين ، وأموالهم ، وأعراضهم قال تعالى :﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾آل عمران ٧٥- ٧٧.

من علاج القرآن لهذا الداء :

وإن من الفقه السليم للقرآن الكريم أن نتأمل سياق الآيات التي تحدثت عن تفضيل بني إسرائيل علي العالمين ، فإننا لو فعلنا سنجد أن الله ﷻ - وهو العليم بنفوس خلقه - قد عقب الآيتين اللتين ذكر فيهما أنه فضل بني إسرائيل على العالمين بما ينفي أي ظن أن هذا التفضيل متعلق بجنسهم ، وإنما هم مثل غيرهم من الخلق سيحاسبون بأعمالهم لا بأنسابهم .

أما الآية الأولى :﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ البقرة آية : ٤٧ فقد أعقبها الله مباشرة بقوله تعالى :﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ البقرة آية :٤٨

وأما الآية الثانية :﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ البقرة : ١٢٢.

فقد أعقبها الله ﷻ بقوله :﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ البقرة ١٢٣، ١٢٤

وواضح أن التحذير الإلهي الذي أعقب آيتي التفضيل ينفي أي شبهة في كون هذا التفضيل ميزة وراثية تنتقل من الآباء للأجداد ، إذ لو كان الأمر كذلك لكان القانون الذي يُحاسب به بنو إسرائيل يوم القيامة غير القانون الذي يحاسب به بقية بنى آدم ولكن هيهات هيهات ، فالقانون واحد والرب

عادل ، ففي هذا اليوم ﴿ لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾. [البقرة : ٤٨]

وفي هذا اليوم ﴿ لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾.

وواضح أيضاً أن دعاء إبراهيم ـ عليه السلام- أن يجعل الله من ذريته أئمة للناس ، وجواب الله له بأن إمامة الناس لا يُعطيها للظالمين ، دليل ساطع أن الفضل مرهون بالعمل والكسب لا بالوراثة والنسب .

قال العزيز الحكيم : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ البقرة : ١٢٣ ، ١٢٤

وحتى لا يتسلل هذا الداء إلى الأمة الخاتمة نجد القرآن الكريم عندما يتحدث عن فضائلها يربط هذه الفضائل بمسوغاتها ، وأسبابها ، ويبين أنها ناتجة عن علم نافع ، وعمل صالح ، وليس لمجرد الانتماء إلى شعب أو قوم كما في قولـــــه تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ آل عمران ١١٠

فالخيرية مرتبطة بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والإيمان بالله ، فإذا انتفت هذه الأعمال الصالحة انتفت معها الخيرية .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ المائدة ٥٤

﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ التوبة ٣٩

(٢)

قصة آدم وما سمي عند النصارى بالخطيئة الأولى

إن الفهم المنحرف لفصول قصة آدم – عليه السلام - ثم العلاقة المعوجة بهذا الفهم أدى بالنصارى إلى اعتقادٍ هو غاية في الغرابة ، ولا ندري كيف راج هذا الاعتقاد المنافي لأبسط مبادئ العدالة ، فهم يؤمنون أن خطيئة آدم قد لوثت ذريته جميعاً ، وأن الله أرسل ابنه المسيح ليُصلب تخليصاً للبشرية من إثم خطيئة أبيهم – تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً- .

وينطوي هذا الاعتقاد على مغالطة واضحة ؛ وهي الفهم الخاطئ لمعصية آدم عليه السلام .

فمعصية آدم عليه السلام " لم تكن لخبثٍ في طبيعته أو سوء في إرادته ، ...بل كانت أثراً من آثار ضعفٍ عارضٍ ، وجهدٍ قاصرٍ في مراعاة الواجب . ومن هنا لم تفسد فطرة الإنسان الأول ، بحيث تستلزم تدخل " مخلص " غيره نفسه ، إذ كان يكفيه أن يعترف بخطيئته ، ويظهر ندمه لا ليُغسَل دَنَسهُ ، وتعود إليه سريرته النقية ، كما كانت فحسب ، ولكن ليُربي هذا التائب الجديد ، ويُرفع إلى درجة المصطفين الأخيار ، ﴿ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ طه : ١٢٢ .

والفطرة الإنسانية ليست على خلاف ذلك ، بصفة عامة ، حتى إن القرآن يصفها فيقول : ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ

﴿ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ ﴾ التين ٤-٦ . وإن القرآن ليصور لنا أخذ البريء بالمذنب ، لا على أنه مضاد للشريعة فحسب ، بل هو كذلك غير متوافق مع الفكرة الأساسية للعدالة الإنسانية :﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ يوسف ٧٩ " [1]

فـ " ليست هنالك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده - كما تقول نظرية الكنيسة - وليس هنالك تكفير لاهوتي ، كالذي تقول الكنيسة إن عيسى - عليه السلام - (ابن الله بزعمهم) قام بصلبه ، تخليصا لبني آدم من خطيئة آدم! . . كلا! خطيئة آدم كانت خطيئته الشخصية ، والخلاص منها كان بالتوبة المباشرة في يسر وبساطة . وخطيئة كل ولد من أولاده خطيئة كذلك شخصية ، والطريق مفتوح للتوبة في يُسر وبساطة . . تصور مريح صريح . يحمل كل إنسان وزره ، ويوحي إلى كل إنسان بالجهد والمحاولة وعدم اليأس والقنوط . . " .[2]

(١) دستور الأخلاق في القرآن الكريم ١٤٩- ١٥٠ .
(٢) في ظلال القرآن

المبحث الخامس
منهج الرسول ﷺ في التربية بالقصص القرآني

حفظت لنا كتب السنة أحاديث علق بها النبي ﷺ على بعض مواقف القصص القرآني وفي تلك الأحاديث إشارات بليغة ودلالات ذات مغزى كبير :

أولها : تعزيز مبدأ الاقتداء بالأنبياء -عليهم السلام-:

ومن ذلك قوله ﷺ : { يَرْحَمُ اللهُ لُوطًا لقد كان يَأوي إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ ، وَلَوْ لَبِثْتُ في السِّجْنِ ما لَبِثَ يُوسُفُ لأَجَبْتُ الدَّاعِي ، وَنَحْنُ أَحَقُّ من إبراهيم إذْ قال له {أو لم تُؤْمِنْ قال بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } " [1]

وقوله ﷺ : " يرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبر أخبره ربه أن قومه فتنوا بعده فلم يُلق الألواح ، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح ، وقال رسول الله ﷺ : رحم الله موسى لو لم يعجل لقص من حديثه غير الذي قص". [2]

([1]) صحيح البخاري ج٤ ص١٧٣١ حديث رقم ٤٤١٧ والآية من سورة البقرة وتمامها :{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}البقرة ٢٦٠

([2]) المستدرك على الصحيحين ج٢ ص٤١٢ حديث رقم ٣٤٣٥ ، وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ومجمع الزوائد ج١:ص١٥٣ وقال الهيثمي رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح وصححه ابن حبان وعن أنس أن النبي ﷺ وسلم قال ليس الخبر كالمعاينة رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات .

وهذه الأحاديث تدل على مدى عناية الرسول ﷺ بالقصص القرآني وشغفه بتفاصيل أحداثه ، وتوجيه أمته إلى التفكر فيه والاعتبار بأحداثه ، كما تدل على عظيم خُلق النبي ﷺ وتواضعه ، وهو يتحدث عن إخوانه من الأنبياء - عليهم السلام – .

وليس من غرض بحثنا شرح وتأويل مواقف الأنبياء – عليهم السلام – التي ذكرها النبي ﷺ في تلك الروايات ، فهذا يحتاج إلى بحث مستقل ، ولكننا سنحاول أن نقف على المغزى التربوي الذي قصده الرسول ﷺ من تلك التعليقات .

١- أما قول النبي ﷺ " يَرْحَمُ اللهُ لُوطًا لقد كان يَأْوِي إلى رُكْنٍ شَدِيدٍ "

فأرى في هذه العبارة النبوية الكريمة مقصداً تربوياً عظيماً ، وهو ترسيخ مبدأ التوكل على الله ، والاعتماد عليه ، والثقة في نصره ، وأنه سبحانه مسبب الأسباب.

وأما موقف لوط - عليه السلام- فإنه قال ذلك لأنه أراد أن يُظهر عذره لضيوفه، وأنه بذل كل ما في وسعه لحمايتهم إذ لم يكن يعلم أنهم من الملائكة ، أما توكله على ربه وثقته به فهذا مالا يشك فيه ، ولما كان ظاهر عبارته يُوهم خلاف ذلك قال النبي ﷺ ما قال بياناً لحقيقة الأمر .

٢- وأما قوله ﷺ : " وَلَوْ لَبِثْتُ في السِّجْنِ ما لَبِثَ يُوسُفُ لأَجَبْتُ الدَّاعِي " .

فأرى فيه ترسيخاً لثلاثٍ من مكارم الأخلاق :

الأولى : فضيلة التأني والحلم فإن في عبارة النبي ثناء على موقف يوسف في تأنيه ، وعدم خروجه من السجن حتى تظهر براءته على الملأ كيلا تقف تلك الشائعة الكاذبة عائقاً يصد الناس عن دعوته عند خروجه .

الثانية : فضيلة الثناء على الفعل الحسن والاعتراف بالفضل لأهله كما فعل النبي ﷺ في ثنائه علي يوسف عليه السلام .

الثالثة : فضيلة التواضع وهضم النفس فمما لا يشك فيه أن النبي ﷺ قال ما قال من باب التواضع ، وهضم النفس فهو الذي قال الله فيه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ القلم ٤

٣- وأما قوله ﷺ : {وَنَحْنُ أَحَقُّ من إبراهيم إذْ قال له {أو لم تُؤْمِنْ قال بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}" .

فقال عنه الإمام ابن حزم : " هذا الحديث حجة لنا على نفي الشك عن إبراهيم عليه السلام أي لو كان الكلام من إبراهيم عليه السلام شكاً لكان من لم يُشاهد من القدرة ما شاهد إبراهيم عليه السلام أحق بالشك فإذا كان من لم يُشاهد من القدرة ما شاهد إبراهيم غير شاك فإبراهيم عليه السلام أبعد من الشك ". (١)

فنأخذ من هذا الحديث ، وما سبقه من التوجيهات النبوية لأفعال الأنبياء قيمة عامة مهمة ، وهى ترسيخ مبدأ الاقتداء بالأنبياء - عليهم

(١) الفصل في الملل ج ٤ ص ٦ .

السلام- وحمل أفعالهم مع ما يتناسب مع قضية العصمة التي أكرمهم الله تعالى بها ، وتلك قاعدة هامة يجب أن يُراعيها المفسر .

٤- وأما قوله ﷺ : " يرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبر أخبره ربه أن قومه فتنوا بعده فلم يُلق الألواح ، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح ".

ففيه بيان سنة من سنن النفس البشرية ، وهى أنها تتأثر بالرؤية المباشرة أكثر من تأثرها بالسماع ، والدرس المستفاد هنا أن تُحسن الأمة الإسلامية عرض قضاياها من خلال أجهزة الإعلام المرئية فإننا في عصر الصورة. وتأثير مشهد حي واحد من واقع الحدث أقوى مئات المرات من مجرد سماع الخبر أو قراءته .

٥- وأما قوله ﷺ : " رحم الله موسى لو لم يعجل لقص من حديثه غير الذي قص"

ففيه بيان حرص النبي ﷺ على الاستزادة من العلم الذي ترتب على صحبة موسى عليه السلام للخضر وتشوقه ﷺ لمعرفة حكمة الله تعالى الكامنة وراء الأحداث ، وفي هذا درس للأمة أن تقتدي بالرسول الكريم ﷺ في ذلك الحرص والتشوق ، وتعض بالنواجذ على ما بين أيديها من قصص الأنبياء وتأخذ منه ما يهديها إلى صحيح الاعتقاد وصواب العمل .

ثانيها : توجيه الرسول ﷺ الصحابة إلى أخلاق الأنبياء ـ عليهم السلام ـ :

استخدم النبي ﷺ وقائع القصص القرآني في تربية الصحابة – رضوان الله عليهم- وحثهم على اكتساب المهارات وتحفيزهم على فعل الخيرات والقيام بالأمانة ولنتأمل معاً بعض الأحاديث النبوية في هذا الصدد:

١- " مَرَّ النبي ﷺ على نَفَرٍ من أَسْلَمَ يَنْتَضِلُونَ فقال النبي ﷺ ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فإن أَبَاكُمْ كان رَامِيًا ارْمُوا وأنا مع بَنِي فُلَانٍ قال : فَأَمْسَكَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ بِأَيْدِيهِمْ فقال رسول اللَّهِ ﷺ ما لَكُمْ لاَ تَرْمُونَ ؟ قالوا كَيْفَ نَرْمِي وَأَنْتَ مَعَهُمْ فقال النبي ﷺ ارْمُوا فَأَنَا مَعَكُمْ كُلِّكُمْ ". [١]

تُرى كم من الصحابة –رضوان الله عليهم - أتقن مهارة الرمي على إثر هذا التوجيه النبوي الخالد ؟ لا شك أن علمهم بأن سلفهم في هذه المهارة هو إسماعيل عليه السلام ترك في أنفسهم أعظم الأثر رغبة في الاقتداء به عليه السلام .

٢- " لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ ما تقولون في هؤلاء الأسرى فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستتبهم لعل الله أن يتوب عليهم فدخل رسول الله ﷺ ولم يرد عليهم شيئا فقال : فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام قال: {وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ

([١]) صحيح البخاري ج ٣ ص ١٠٦٢ حديث رقم ٢٧٤٣ .

غَفُورٌ رَّحِيمٌ}إبراهيم٣٦ ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال :{ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }المائدة١١٨ [١]

٣- " عن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال له يا أبا موسى لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود " [٢]

٤- " ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود - عليه السلام- كان يأكل من عمل يده " وفى رواية : " أن داود - عليه السلام- كان لا يأكل إلا من عمل يده " [٣]

إن هذه التوجيهات التربوية الخارجة من مشكاة النبوة أشعلت جذوة الاقتداء بالأنبياء - عليهم السلام - في نفوس الصحابة الكرام ، وجعلت التشبه والاقتداء بهم غاية وهدفاً ، وهي تعطينا في ذات الوقت درساً في منهجية التربية بالقصص القرآني ، وهو أن نشبه الأعمال النبيلة ، والملكات المرضية عندما تظهر على يد الأفراد بأعمال من سبق إليها من الأنبياء ترغيباً في الحرص عليها حتى تتسابق النفوس الطيبة في مضمار الخير والإحسان .

ثالثها : تحذير الأمة من علل التدين التي أصابت الأمم السابقة.

ومقصودنا بعلل التدين تلك الانحرافات العقدية ، والسلوكية التي وقعت فيها الأمم السابقة أثناء تعاملها مع الدين الإلهي ، ونقصد بالأمم

---

(١) فضائل الصحابة لابن حنبل ج١ ص١٨١ حديث رقم ١٨٦ .
(٢) صحيح البخاري ج٤ ص١٩٢٥حديث رقم ٤٧٦١ .
(٣) صحيح البخاري ج٢ ص٧٣٠ حديث رقم ١٩٦٦وحديث رقم ١٩٦٧ .

السابقة أمم الإجابة التي لبت دعوة الرسل ، ولكنها تعاملت بشكل منحرف مع ما آمنت به مثل اليهود والنصارى

ففي تحذير نبوي عام من تلك العلل قال النبي ﷺ : " لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ من قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حتى لو سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ قُلْنَا : يا رَسُولَ اللهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قال فَمَنْ "[1] .

وظاهر من سياق الكلام أن قول النبي ﷺ : " لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ من قَبْلَكُمْ " إنما جاء في معرض الذم ، والمراد النهي عن تلك الحالة وتقبيحها .

والسيرة النبوية حافلة بتلك المواقف التي أعلن فيها النبي ﷺ عن غضبه كلما وجد من تلك العلل شيئاً في تصرفات أمته ، وفيما يلي أذكر بعضاً من تلك التوجيهات النبوية الشريفة .

١ـ في العقائد :

روى أبو واقد الليثي ﷺ : " أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى خيبر مر بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط يعلقون عليها أسلحتهم فقالوا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال النبي ﷺ : سبحان الله هذا كما قال قـــوم موسى عليه السلام :

{... ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ ...} الأعراف١٣٨ والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم". [1]

([1]) صحيح البخاري ج٣/ص١٢٧٤ حديث رقم ٣٢٦٩ .

ففي هذا الحديث تحذير من علة التقليد الأعمى في العقائد الذي تنساق إليه النفوس الضعيفة غير الواثقة بما لديها من الحق ، والتحذير من الحنين إلى عقائد الماضي الباطلة .

٢ـ في النظام الاجتماعي :

ما روته السيدة عَائِشَة – رضي الله عنها ـ أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ التي سَرَقَتْ فَقالُوا : من يُكَلِّمُ فيها رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عليه إلا أُسَامَةُ حِبُّ رسول اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فقال : رسول اللَّهِ ﷺ أَتَشْفَعُ في حَدٍّ من حُدُودِ اللَّهِ ثُمَّ قام فَاخْتَطَبَ فقال : أَيُّهَا الناس إنما أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إذا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وإذا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عليه الْحَدَّ وأيم اللَّهِ لو أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا ...[٢] .

في هذا الحديث تحذير من مرض اجتماعي خطير ، وهو تقسيم المجتمع إلى طبقات ، وعدم المساواة بين أفراده أمام القانون ، وإذا حدث هذا فَقَدَ القانون ، والقائمون به قيمة الاحترام المعنوي في نفوس الناس ، وشاع مبدأ التفلت من القانون ، والخروج عليه ، ومن ثم تدب الفوضى ، ويحل الهلاك ، وقد صاغ النبي ﷺ هذا التوجيه بأسلوب مؤثر عندما ذكره مقترناً بأثره فيمن قبلنا فكأننا نرى الصورة ماثلة أمامنا ، وقد حل الهلاك بتلك المجتمعات التي دب إليها ذلك الداء .

---

(١) سنن الترمذي ج٤ ص٤٧٥حديث رقم ٢١٨٠و قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح .

(٢) صحيح مسلم ج٣/ص١٣١٥حديث رقم ١٦٨٨ .

٣- في السلوك العلمي :

" كان أبو هُرَيْرَةَ ﷺ يُحدث أَنَّهُ سمع رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول : ما نَهَيْتُكُمْ عنه فاجْتَنِبُوهُ وما أَمَرْتُكُمْ بِهِ فافْعَلُوا منه ما اسْتَطَعْتُمْ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ من قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ على أَنْبِيَائِهِمْ ".[١]

في هذا الحديث الشريف تحذير من داء الجدل العقيم ، والإيغال في المسائل النظرية التي لم تقع ولا يترتب عليها عمل ، والحث على الاشتغال بالمفيد النافع الذي هو واجب الوقت ،وتربية الأمة على أن تكون أمة عملية تتعلم العلم للعمل به لا لمجرد الجدل والترف الفكري .

نماذج لاعتبار النبي ﷺ ذاته بالقصص القرآني :

قال الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ

([١]) صحيح مسلم ج٤/ص١٨٣٠حديث رقم ١٣٣٧

فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

الأنعام الآيات ٨٣- ٩٠

ذكر الله تعالى في هذه الآيات ثمانية عشر نبياً ، ثم قال لرسوله ﷺ :{ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ }.

وقد امتثل النبي الكريم ﷺأمر ربه ﷻ ، فنري في سيرته الشريفة مواقف الاقتداء بهؤلاء الرسل الكرام واضحة بينة . نقتصر منها على ما يلي :

١- استحضر النبي ﷺ قصة موسى عليه السلام في غزوة بدر لما وقف على مقتل أبي جهل قال :" الحمد لله الذي أخزاك يا عـــــــــــدو الله هذا كان فرعون هذه الأمة "(١)

واعتبر بصبر موسى عليه السلام على أذى بني إسرائيل له :

٢- عن عبد الله رضي الله عنه : "لما كان يوم حنين آثر النبي ﷺ ناسا أعطى الأقرع مائة من الإبل وأعطى عيينة مثل ذلك وأعطى ناسا فقال رجل : ما أريد بهذه القسمة وجه الله . فقلت : لأخبرن النبي ﷺ قال رحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر"(٢)

٣- اعتبر النبي ﷺ يوم فتح مكة لما قام على باب الكعبة - وقد أذل الله له الذين عادوه وحاربوه من الطلقاء - فقال ﷺ: ماذا أنتم قائلون فقالوا : نقول أخ

(١) مسند أحمد بن حنبل ج١ ص٤٤٤ .
(٢) صحيح البخاري ج٤ ص١٥٧٦حديث رقم ٤٠٨١.

كريم وابن عم كريم فقال ﷺ : إني قائل لكم كما قال يوسف عليه السلام لأخوته: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ يوسف :٩٢ [1].

نماذج لاعتبار الصحابة بقصص القرآن الكريم :

١ـ اعتبار أبى بكر الصديق ﷺ بدفاع مؤمن آل فرعون عن موسى عليه السلام :

عن عروة بن الزبير ﷺ قال :سألت عبد الله بن عمرو ﷺ عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ قال: رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ و هو يصلي فوضع رداءه في عنقه فخنقه به خنقاً شديداً فجاء أبو بكر ﷺ حتى دفعه عنه فقال:{ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ} غافر ٢٨ ".[2]

٢ـ اعتبار السيدة عائشة –رضي الله عنها- بصبر يعقوب عليه السلام :

لما ظلمت السيدة عائشة – رضي الله عنها - وقال عنها المنافقون ما قالوا في قصة الإفك ، وقال لها النبي ﷺ : إن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله ، وتوبي إليه قالت : إني والله لا أجد

---

(١) انظر سنن البيهقي الكبرى ج ٩ ص ١١٨حديث رقم ١٨٠٥٥.
(٢) صحيح البخاري ج٣ ص١٣٤٥حديث رقم ٣٤٧٥ .

مثلاً إلا أبا يوسف{فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ } يوسف١٨. وأنزل الله {إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ} العشر آيات ". (١)

٣- اعتبار المقداد بن الأسود ﷺ من عصيان بني إسرائيل لموسى عليه السلام :

قال عبد الله بن مسعود ﷺ : " شهدت من المقداد بن الأسود ﷺ مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إليَّ مما عدل به أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال لا نقول كما قال قوم موسى {فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ } المائدة٢٤ ، ولكنا نقاتل عن يمينك ، وعن شمالك ، وبين يديك ، وخلفك . فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره يعني قوله " .(٢)

(١) صحيح البخاري ج٤ ص١٧٢٩.
(٢) صحيح البخاري ج٤ ص١٤٥٦حديث رقم ٣٧٣٦.

المبحث السادس

أسباب خمود ملكة الاعتبار بالقصص القرآني

أولا : الإسرائيليات والأحاديث المكذوبة :

إن قصص القرآن العزيز ركز على جانب العظة ، والعبرة في القصة ، ومن هنا نراه يتجاوز تفاصيل الأحداث ، وأزمانها وأسماء الأشخاص الذين شاركوا فيها مما لا تتوقف فائدة درس العبرة عليه ، ولكننا وجدنا من شغل نفسه بما تركه القرآن أكثر مما شغلها بما ذكره القرآن ، واهتم به ففات عليه المقصود الأعظم ، وقد حاول من فعل ذلك أن يستعين بالتوراة والإنجيل ، وهما كما ثبت وكما نص القرآن قد تم تحريفهما ، واختلط فيهما وحي الله بأهواء الناس ، فلا يصلحان والحالة هذه اعتبارهما مصدراً موثوقاً به من مصادر التفسير .

نداء ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ :

وقد صرخ بها قديماً حبر الأمة وترجمان القرآن ، ولو استمع كثير من المفسرين لندائه لما وجدنا في تفاسيرهم تلك الإسرائيليات التي أضحت بمثابة ألغام ثقافية تعوق نهوض الأمة نحو رسالتها ، يقول ـ رضي الله عنهما ـ :

" كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيءٍ ، وَكِتَابُكُمُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْدَثُ ، تَقْرَءُونَهُ مَحْضًا لَمْ يُشَبْ ، وَقَدْ حَدَّثَكُمْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ بَدَّلُوا كِتَابَ اللَّهِ ، وَغَيَّرُوهُ ، وَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ ، وَقَالُوا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ،

لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ، أَلاَ يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنْ مَسْأَلَتِهِمْ ، لاَ وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ رَجُلاً يَسْأَلُكُمْ عَنِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ ." [1]

وما أجمل وأبلغ تشبيه ابن عباس - رضي الله عنهما - للقرآن الكريم باللبن المحض ، وهو اللبن الخالص بلا رغوة . لم يخالطه ماء .[2]

ومقصده - رضي الله عنه - كيف نترك هذا المورد العذب المصفي ونلجأ إلى آخر قد كدرته أهواء الناس وأكاذيبهم .

معنى إباحة النبي ﷺ التحدث عن بني إسرائيل :

وأما قول النبي ﷺ " ...وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج..." [3]

فقد وضح العلماء المقصود به وشرحوا ذلك وفيما يلي بعضاً من أقوالهم :

قال الإمام الشافعي – رحمه الله – : " أي لا بأس أن تحدثوا عنهم مما سمعتم ، وإن استحال أن يكون في هذه الأمة ، مثل ما روى أن ثيابهم تطول ، والنار التي تنزل من السماء فتأكل القربان . ليس أن يُحدث عنهم بالكذب " . [4]

وقال الإمام ابن العربي : " ومعنى هذا الخبر الحديث عنهم بما يخبرون به عن أنفسهم وقصصهم ، لا بما يخبرون به عن غيرهم ؛ لأن أخبارهم عن غيرهم مفتقرة إلى العدالة ، والثبوت إلى منتهى الخبر، وما يُخبرون به عن

---

(1) صحيح البخاري ٢٤ / ١٨٢حديث رقم ٧٣٦٣ .
(2) انظر لسان العرب ج٧ ص٢٢٧.
(3) صحيح البخاري ج٣ ص١٢٧٥حديث رقم ٣٢٧٤ .
(4) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ج٢/ص١١٧

أنفسهم ، فيكون من باب إقرار المرء على نفسه أو قومه فهو أعلم بذلك ، وإذا أخبروا عن شرع لم يلزم قوله ، ففي رواية مالك عن عمر ﷺ أنه قال : " رآني رسول الله ﷺ وأنا أمسك مصحفاً قد تشرمت حواشيه فقال : ما هذا ؟ قلت : جزء من التوراة فغضب ، وقال والله لو كان موسى حياً ما وسعه إلا إتباعي " .[1]

وقال الإمام ابن كثير - رحمه الله- : " إذا تقرر جواز الرواية عنهم ، فهو محمول على ما يمكن أن يكون صحيحا ، فأما ما يُعلم أو يظن بطلانه لمخالفته الحق الذي بأيدينا عن المعصوم ، فذاك متروك مردود لا يعرج عليه ، ثم مع هذا كله لا يلزم من جواز روايته أن تعتقد صحته ؛ لما رواه البخاري ...عن أبي هريرة ﷺ قال " كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ، ويُفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ :" لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، و ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ البقرة١٣٦الآية"[2].

ثانيا : الركون للحاضر وتبلد الحس :

فكثيراً ما يغلب الحس وتسيطر المادة علي تفكير الإنسان ، واهتماماته ، فيُغلق في نفسه باب استلهام عبر التاريخ ، قال تعالى ﴿ لَقَدۡ

(1) أحكام القرآن لابن العربي ج ١ ص ٣٧.
(2) البداية والنهاية ج٢/ص١٣٣، والحديث في صحيح البخاري ج٤ ص١٦٣٠ حديث رقم ٤٢١٥

كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ يوسف١١١ قال الإمام البيضاوي : عبرة " لذوي العقول المبرأة من شوائب الإلف والركون إلى الحس" .[1]

ويا ويل أمة يقودها أناس من هذه الشاكلة إنها تصبح أضحوكة الأمم وملهاة التاريخ ، ويصدق فيها قول من قال : الشقي من وعظ بنفسه ، وحينها لات ساعة مندم ، ونحن نعيش اليوم في عصر اغتر أهله بالمنجزات المادية ، وقالوا فعلنا ما لم نُسبق إليه ، فقد صعدنا إلى القمر ، وفجرنا الذرة ، وبنينا ناطحات السحاب وغصنا في أعماق البحار ، وانشغلوا بذلك عن عبرة التاريخ ، فإن هذه الأرض شهدت أمماً ذات بأس اعتقدت في نفسها ما يعتقد أبناء الحضارة الحديثة فجاءهم بأس الله .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ الأنعام٦

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ الأنفال٥٤

(1) تفسير البيضاوي ج٣:ص٣١٣ .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤ ﴾ الفجر ٦- ١٤

ثالثا: طريقة تفسير القصص القرآني :

والتي هي قائمة على السرد المجرد دون تركيز المعلم علي جانب العبرة ، وحتى الكتب التي اهتمت بذكر العبر من القصص القرآني أهملت ربطها بالواقع، وهو قصور منهجي ينبغي تلافيه .

رابعا: الأهواء والشهوات

فإن الاعتبار عمل العقل والقلب ، فإذا طُمسا بهوي متبع ، وشهوة حرام، فمن أين تأتيهما الفكرة التي تنبثق منها العبرة ، وعن أمثال هؤلاء قال تعالي :

﴿ ... وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ۝٢٨ ﴾ الكهف٢٨

وقال ﷻ: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٣ ﴾ الجاثية٢٣

وقال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾. الأعراف ١٧٩

وقال ﷻ : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ الفرقان ٤٤

وقال ﷻ : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ الرعد ٦

خامسا : النفاق قال ﷻ عن المنافقين : ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ التوبة ١٢٦ والذي لا يعتبر بالأحداث التي تمر به هو شخصياً ، فهو من الاعتبار بالتاريخ بمكان بعيد ، على عكس المؤمن الذي قال فيه النبي ﷺ : " لا يُلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين".[1]

سادسا : الجهل قال تعالي: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ البقرة ١١٨

فلو كان عند هؤلاء علم بالتاريخ ، لما وقعوا في نفس خطأ السابقين .

([1]) صحيح البخاري ج٥ ص٢٢٧١حديث رقم ٥٧٨٢ .

المبحث السابع

الخطة المقترحة لتفعيل اعتبار الأمة بالقصص القرآني

إذا كانت قاعدة " العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب " قد اشتهرت ، وأجمع عليها العلماء ، فيما يخص أسباب نزول القرآن الكريم ؛ تأكيداً منهم لشمولية شريعة القرآن للزمان ، والمكان ، والإنسان ، فإن هناك قاعدة أخرى يجب أن نؤسس لها في فهمنا للقصص القرآني ، وهى تُشْبه القاعدة السابقة في الغاية والهدف ، ويمكن أن نقترح لها مثل هذه الصيغة .

" التفكر والاعتبار هو المقصود الأعظم من قصص القرآن ، لا مجرد ذم أفراد وأمم ، أو مدح أفراد وأمم ، والسنن الإلهية في التعامل مع البشر المضمنة في القصص القرآني ، هي سنن عامة ، لا تختص بشعب دون شعب ، ولا بفرد دون فرد " .

ويمكننا أن نُنَظر لهذه القاعد أصولياً بكلام للعلامة الشنقيطي يقول فيه :

" ركز الله في فطر الناس ، وعقولهم التسوية بين المتماثلين وإنكار التفريق بينهما والفرق بين المختلفين ، وإنكار الجمع بينهما .

قال تعالى : عقب إخباره عن عقوبات الأمم المكذبة لرسلهم ، وما حل بهم : ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ القمر ٤٣

فهذا محض تعدية الحكم إلى من عدا المذكورين بعموم العلة ، وإلا فلو لم يكن حكم الشيء حكم مثله لما لزمت التعدية ، ولا تمت الحجة .

ومثل هذا قوله تعالى : عقيب إخباره عن عقوبة قوم هود حين رأوا العارض في السماء

﴿ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ ﴾ فقال تعالى: ﴿ ... بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ الأحقاف ٢٤، ٢٥ . ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ الأحقاف ٢٦

فتأمل قوله : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ تجد المعنى أن حكمكم كحكمهم وأنا إذا كنا قد أهلكناهم بمعصية رسولنا ، ولم يدفع عنهم ما مكنوا فيه من أسباب العيش فأنتم كذلك تسوية بين المتماثلين ، وأن هذا محض عدل الله بين عباده .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ محمد ١٠ فأخبر أن حكم الشيء حكم مثله .

وكذلك كل موضع أمر الله سبحانه فيه بالمسير في الأرض ، سواء كان السير الحسي على الأقدام والدواب ، أو السير المعنوي بالتفكير ، والاعتبار ، أو كان اللفظ يعمهما ، وهو الصواب ، فإنه يدل على الاعتبار ،

والحذر أن يحل بالمخاطبين ما حل بأولئك ، ولهذا أمر - سبحانه - أولي الأبصار بالاعتبار بما حل بالمكذبين ، ولولا أن حكم النظير حكم نظيره حتى تعبر العقول منه إليه لما حصل الاعتبار .

وقد نفى الله سبحانه عن حكمه ، وحكمته التسوية بين المختلفين في الحكم فقال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ القلم ٣٥ ، ٣٦ ، وأخبر أن هذا حكم باطل في الفطر ، والعقول لا تليق نسبته إليه - سبحانه - .

وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الجاثية : ٢١ ،

وقال تعالى:﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ ص : ٢٨

أفلا تراه كيف ذكَّر العقول ، ونبه الفطر بما أودع فيها من إعطاء النظير حكم نظيره ، وعدم التسوية بين الشيء ، ومخالفه في الحكم ، وكل هذا من الميزان الذي أنزله الله مع كتابه ، وجعله قرينه ووزيره ، فقال ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ الشورى : ١٧ ، وقال :﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ الحديد : ٢٥ ، وقال تعالى:﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ

﴿ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ ﴾ الرحمن : ١-٢ فهذا الكتاب ثم قال : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ الرحمن : ٧ ، والميزان يراد به العدل ، والآلة التي يعرف بها العدل وما يضاده .

والقياس الصحيح هو الميزان ، فالأولى تسميته بالاسم الذي سماه الله به . فإنه يدل على العدل ، وهو اسم مدح واجب على كل واحد في كل حال بحسب الإمكان . بخلاف اسم القياس فإنه ينقسم إلى حق وباطل ، وممدوح ومذموم ، ولهذا لم يجئ في القرآن مدحه ولا ذمه ، ولا الأمر به ولا النهي عنه ، فإنه مورد تقسيم إلى صحيح وفاسد ، فالصحيح هو الميزان الذي أنزله الله مع كتابه، والفاسد ما يضاده كقياس الذين قاسوا البيع على الربا بجامع ما يشتركان فيه من التراضي بالمعاوضة المالية ، وقاس الذين قاسوا الميتة على المُذكي في جواز أكلها بجامع ما يشتركان فيه من إزهاق الروح ، هذا بسبب من الآدميين ، وهذا بفعل الله . ولهذا تجد في كلام السلف ذم القياس ، وأنه ليس من الدين ، وتجد في كلامهم استعماله والاستدلال به ، وهذا حق وهذا حق . كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

والأقيسة في الاستدلال ثلاثة : قياس علة ، وقياس دلالة ، وقياس شبه ، وقد وردت كلها في القرآن .

فأما قياس العلة فقد جاء في كتاب الله عز وجل في مواضع . منها قوله تعالى ، ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ﴾ [آل عمران : ٥٩] فأخبر تعالى أن عيسى نظير آدم في التكوين ، بجامع ما يشتركان فيه من المعنى الذي تعلق به وجود سائر المخلوقات ،

وهو مجيئها طوعاً لمشيئته وتكوينه ، فكيف يستنكر وجود عيسى من غير أب من يقر بوجود آدم من غير أب ولا أم ، ووجود حواء من غير أم . فآدم وعيسى نظيران يجمعهما الذي يصح تعليق الإيجاد والخلق به .

ومنها قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٧] أي قد كان من قبلكم أمم أمثالكم ، فانظروا إلى عواقبهم السيئة ، واعلموا أن سبب ذلك ما كان من تكذيبهم بآيات الله ورسله ، وهم الأصل وأنتم الفرع ، والعلة الجامعة التكذيب ، والحكم الهلاك.

ومنها قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [الأنعام : ٦] فذكر سبحانه إهلاك من قبلنا من القرون ، وبين أن ذلك كان لمعنى القياس وهو ذنوبهم ، فهم الأصل ونحن الفرع ، والذنوب العلة الجامعة ، والحكم الهلاك . فهذا محض قياس العلة ، وقد أكده سبحانه بضرب من الأولى ، وهو أن من قبلنا كانوا أقوى منا فلم تدفع عنهم قوتهم وشدتهم ما حل بهم ." (١)

---

(١) أضواء البيان ج٤/ص ١٨٣، ١٨٤ ،١٨٥ .

الخاتمة

طوف بنا هذا البحث في دروب من المعرفة حول القصص القرآني ، فوجدنا الحقائق التالية

١- القصص القرآني ، إنما أورده الله لحكم عظيمة جليلة ، ينبغي تدبرها لنفهمه على هديها ومن هذه الحكم : كونه شاهد حق على صدق الرسول ﷺ، وكونه يبين حقيقة الدين الإلهي الذي جاء به الرسل الكرام وأنه دين واحد هو الإسلام ،وكونه من وسائل الهداية والتربية والإصلاح ، وكونه يُعرف بطبائع الناس ، ووسائل علاجها ، وسنن الله في عقابها أو معافاتها، وكونه تثبيت فؤاد النبي ﷺ وصحابته الكرام وأهل الحق من بعدهم .

٢- وقصص القرآن الكريم هو أوثق مصادر التاريخ على الإطلاق والقول بخلاف ذلك هو افتراء على الله بغير علم .

٣- كما أن قصص القرآن ينظم علاقة البشر بالتاريخ ، ويمنع من الانحراف في هذه العلاقة ، ويعالج ما وقع من أخطاء في فهم التاريخ وحركته وتفسيره .

٤- التربية بأحداث التاريخ منهج قرآني اتبعه الرسول ﷺ في تربية أمته ، ولا شك أن الأمة في أمس الحاجة لأحياء هذا المنهج القرآني .

٥- هناك أسباب لخمود ملكة الاعتبار بالقصص القرآني ، منها الإسرائيليات ، والاستغراق في الحاضر ، والإغراق في المادية ، والنفاق ..

٦ـ هناك قاعدة يجب أن نؤسس لها في فهمنا للقصص القرآني يمكن أن نقترح لها مثل هذه الصيغة . " التفكر والاعتبار هو المقصود الأعظم من قصص القرآن ، لا مجرد ذم أفراد وأمم ، أو مدح أفراد وأمم ، والسنن الإلهية في التعامل مع البشر المضمنة في القصص القرآني ، هي سنن عامة ، لا تختص بشعب دون شعب ، ولا بفرد دون فرد " .

أهـــم المراجـــع

- القرآن الكريم
- الجامع الصحيح المختصر ، اسم المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي الوفاة: ٢٥٦ ، دار النشر : دار ابن كثير ، اليمامة - بيروت - ١٤٠٧ - ١٩٨٧ ، الطبعة : الثالثة ، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا.
- صحيح مسلم بشرح النووي ، اسم المؤلف: أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي الوفاة: ٦٧٦ ، دار النشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٣٩٢ ، الطبعة : الطبعة الثانية .
- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، اسم المؤلف: أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني ، دار النشر : مؤسسة قرطبة – مصر .
- السنن الكبرى ، اسم المؤلف: أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١١ - ١٩٩١ ، الطبعة : الأولى ، تحقيق : د.عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد كسروي حسن.
- سنن البيهقي الكبرى ، اسم المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي الوفاة: ٤٥٨ ، دار النشر : مكتبة دار الباز - مكة المكرمة - ١٤١٤ - ١٩٩٤ ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا.
- المستدرك على الصحيحين ، اسم المؤلف: محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري ، دار النشر : دار الكتب العلمية -

بيروت - ١٤١١هـ - ١٩٩٠م ، الطبعة : الأولى ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا

- صحيح القصص النبوي . د. عمر سليمان الأشقر . ط. دار النفائس . الأردن . الرابعة ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩م.
- نظرات في القرآن.الشيخ محمد الغزالي - الرابعة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م . دار الكتب الحديثة .مصر .
- كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، اسم المؤلف: أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس الوفاة: ٧٢٨ ، دار النشر : مكتبة ابن تيمية ، الطبعة : الثانية ، تحقيق : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي
- شرح صحيح البخاري ، اسم المؤلف: أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي الوفاة: ٤٤٩هـ ، دار النشر : مكتبة الرشد - السعودية / الرياض - ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م ، الطبعة : الثانية، تحقيق : أبو تميم ياسر بن إبراهيم
- الفصل في الملل والأهواء والنحل ، اسم المؤلف: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد الوفاة: ٥٤٨ ، دار النشر : مكتبة الخانجي – القاهرة
- أحكام القرآن ، اسم المؤلف: أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي الوفاة: ٥٤٣هـ ، دار النشر : دار الفكر للطباعة والنشر - لبنان ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا

- الجامع الصحيح سنن الترمذي، اسم المؤلف: محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي ، دار النشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت-، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون .
- فضائل الصحابة ، اسم المؤلف: أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني ، دار النشر : مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٣ - ١٩٨٣ ، الطبعة : الأولى ، تحقيق : د. وصي الله محمد عباس "
- تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل محمد جمال الدين القاسمي ط دار الفكر – بيروت – الثانية ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م .
- لسان العرب ، اسم المؤلف: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ، دار النشر : دار صادر - بيروت ، الطبعة : الأولى .
- معجم مقاييس اللغة ، اسم المؤلف: أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، دار النشر : دار الجيل - بيروت - لبنان - ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م الطبعة : الثانية ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون .